الشريفة بنت صاحب السبيل

الناشـــر

مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع
١٤٤ ش طيبة - سبورتنج - الإسكندرية
ت . ف : ٥٩٢٢١٧١ - ٣٩٢١٢٨٤

مؤسسة طيبة للنشر والتوزيع
٧ش علام حسين - الظاهر - القاهرة
ت : ٠٢/٦٨٢٦٧٤٦٠ فاكس : ٠٢/٦٨٢١٩٠٢

الطبعـة الأولـى
٢٠٠١

جمع كمبيوتر : طارق بندق
تصميم الغلاف : هبة غالب
رقم الإيداع بدار الكتب :
١٣٧١٤ / ٢٠٠١

الترقيم الدولى I.S.B.N
977-5969-25-5

مهدى بندق

الشريفة بنت صاحب السبيل

مسرحية شعرية

صدر للشاعر

- سفينة نوح الضائعة ــ مسرحية ــ المجلس الأعلى للفنون والآداب ١٩٦٤
- الحلم الطروادي ــ مسرحية ــ دار لوران ١٩٦٦
- الدين والفن ــ نقد ــ دار النهضة العربية ١٩٦٨
- الملك لير ــ مسرحية ــ دار الوادي ١٩٧٨
- ريم على الدم ــ مسرحية ــ دار الوادي ١٩٨٠
- السلطانة هند ــ مسرحية ــ اتحاد الكتاب ١٩٨٥
- غيط العنب ــ مسرحية ــ الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٥
- ليلة زفاف إلكترا ــ مسرحية ــ الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٧
- امتحان بن حنبل ــ شعر ــ المركز القومي للفنون ١٩٨٧
- غيلان الدمشقي ــ مسرحية ــ الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٠
- حصان على صهوة رجل ــ شعر ــ الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٤
- يا أورفيوس ــ شعر ــ المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٦
- مقتل هيباشا الجميلة ــ مسرحية ــ الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٦
- هل أنت الملك تيتي ــ مسرحية ــ دار الصديقان ١٩٩٨
- آخر أيام أخناتون ــ مسرحية ــ دار حورس الدولية ١٩٩٨
- المسرح وتحولات العقل العربي ــ نقد ــ المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٨.
- حتشبسوت بدرجة الصفر ــ مسرحية ــ دار حورس الدولية ١٩٩٩
- إضراب عن الماء ــ شعر ــ مؤسسة حورس الدولية ٢٠٠٠
- بسماتيك..و..بسماتيك ــ مسرحية شعرية ــ مؤسسة حورس الدولية ٢٠٠٠
- الشريفة بنت صاحب السبيل ــ مسرحية شعرية ــ دار تحديات ثقافية للنشر ــ ٢٠٠١

جائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٩٣

الإهداء

إلى زوجتي

صدى عمرٍ كامل من العطاء

إشارة

قدمت وزارة الثقافة المصرية
للمؤلف منحة تفرغ لمدة عام
لكتابة هذه المسرحية
فإليها الشكر و التقدير

الشخصيات حسب الظهور

١ــ أبو العينين	:	متسول أعمى و لكن به طموح لاهب
٢ــ الشريفة	:	في نحو الخمسين و هي أيضاً أم على الغولة ثم هي اليمامة
٣ــ محمد الطبلاوي	:	إعلاميٌّ في ديوان الخليفة المستنصر
٤ــ حسنين	:	ابن رتيبة ، من سكان حارة شمس
٥ــ الحمزاوي	:	شيخ شيوخ الحارات
٦ــ المستنصر	:	الخليفة الفاطمي
٧ــ ابن عمارة	:	حاجبه ، من أصول قبطية
٨ــ صفوى	:	تاجر رقيق من فارس
٩ــ البكري	:	رئيس الشرطة
١٠ــ سرداح	:	حرفوش ، عمل مخبراً لفترة
١١ــ الهلب	:	قاطع طريق و بائع للحم البشريّ
١٢ــ برقوق	:	زميله
١٣ــ زكريا	:	ناسك
١٤ــ جبران	:	كبير النساك
١٥ــ زعيم الغوغاء		

و جارية حسناء ، و امرأة شبقة ، و أهالي و نساك ،و حرس

الفصل الأول

المشهد الأول

الوقت : أصيل يوم قائظ من عام ١٠٧٢ ميلادي ـ ٤٦٤ هـ

المنظر : جانب من زقاق بالقاهرة الفاطمية ، تبدو فيه البيوت متسخة مهدومة.
امرأة كهلة تطل من شباك سفلي لبيت ذي طابقين آيل للسقوط .
تلك هي أم علي
و الطريق خال إلا من متسول أعمى هو أبو العينين يمشي متحسساً الهواء منادياً

أبو العينين : **يا أهل البر**
أرغفة خمساً لله
ذاك هو الحد الأدنى للصدقة
لم آكل من شهر يا ناس
(**بعد هنيهة**) أو خلوها ـ لا مانع عندي ـ زوجين
(**و بعد هنيهة**) طيب.ثلثاها يا أهل الجود
(**و بعد أخرى**) لم أسمع منكم رداً حتى الآن
(**و لنفسه**) **معهم حق يا بن أبي العينين**
فمقابل ماذا **يمنحك** الناس الخبز ؟!
(**و منادياً بعد تفكير**) **أعطوني اثنين**
يمنحكم ربي قصراً في الجنة . أي و الله

(ثم مزمجراً) قصر في الجنة برغيفين و لا يرضيكم ؟!
(هنيهة) طيب هاتوا يا كرماء رغيفاً و خذوا القصر
ماذا ؟! أزهدتم في جنة رضوان ؟!
(و متباكياً) طيب نصف رغيف لأبي العينين المسكين
(هنيهة) حتى النصف كثير في ملتكم ؟
(و بشخرة أنف) طيب ربع
(و زاعقاً) ردوا يا أولاد العرص
(تصدر عن المرأة همهمة يتوقف لها الأعمى هاتفاً)
ما هذا ؟! صوت رغيف يتدحرج ؟

أم علي : لولا عهدي لأشقائي أن أجتنب الضحك لقهقهت

أبو العينين : (بدهشة) عاهدت أشقائك أن تجتنبي ماذا ؟!

أم علي : الضحك .. هل في هذا ما يدهش ؟
بل هو أمر مألوف أن تنصاع المرأة لأوامر أخوتها
و خصوصاً حين يكون الأخوة معروفين لكل الناس

أبو العينين : فلماذا لا أعرفهم ؟! أولست أنا ضمن الناس ؟!

أم علي : أنت حمار تلبس برذعةً و لهذا تجهلهم
(و تشرح له) هم يا هذا .. أربعة رجال و فتاة
الحزنُ ، الهمُ ، الغمُ ، البؤس
و الأخت الصغرى ندعوها في العائلةِ .. مصيبة

أبو العينين : هل أفهم من هذا أنك قبطية؟

أم علي : بل مسلمة و اسمي أم علي

(و بتعجب) أتظن الأقباط فحسب هم التعساء ؟

أبو العينين على رأيك . نحن جميعاً مضروبون .. و لكن من أنت ؟

أم علي : إني امرأتان تعيشان بنفس الجسم

أبو العينين : (بفم مفتوح) و اللهِ ؟!

أم علي : أحيانا أصمت بالشهر و بالشهرين

ثم أراني أتحدث حتى لبهيم مثلك دون توقف

يمكنني أن أبقى صائمة لأسابيع

ثم يفاجئني جوع يذهلني حتى عن طلب الأكل

لكن دعنا من هذا الآن و قل لي .. ماذا تدعى ؟

أبو العينين : محسوبك من بلد الإسكندر . و اسمي ابن أبي العينين

أم علي : اسم يوحي بالبصر الحاد

أبو العينين : مع أني أعمى .. لكن سمعي جبار . أي و اللهِ

أم علي : يعني أنت سمعت امرأة تهذي في باب الحارة

أبو العينين : و كان رضيع يبكي معها . لكن فيم سؤالك ؟

أم علي : كنت تريد رغيفاً فلماذا لا تأخذ ألفاً ؟

أبو العينين : آخذ ألفاً كيف ؟!

أم علي : عندي قرط ذهبي هو آخر ما أبقته لي الدنيا

فإذا أنت تسللت و جئت إليَّ بهذا الطفل

أعطيتك فوراً هذا القرط الذهبي

أبو العينين : (مندهشاً) أتريدين لأسرق طفلاً ؟!

لا . لا . هذا فعل إجرامي لا أرضاه لنفسي

أم علي : و ترضى أن تتسول مثل الكلب الأجرب ؟

أبو العينين : أشرف من خطف الأطفال . أي و الله

أم علي : يا هذا افهمني

إني أطلب هذا الطفل لأحميه

أبو العينين : قول لا يدخل حتى عقل البرغوث

فمن أدراني أنك لن تفترسيه ؟

شيء في صوتك يدعو بأنك غولة . أي و الله

أم علي : فلماذا لم تهرب مني ؟!

لأنك ترغب في القرط . أي و الله

و لأنك تعلم أن الناس جميعاً غيلان

خذ مثلاً رجلاً يذبح ديكاً كان يؤذن

هو غول بالنسبة للديك

أو سيدة تحشو البطن بضلع خروف أو عنزة

تلك هي الغولة في تاريخ الأغنام التعساء

و إليك مثالاً آخر أكثر إيضاحاً

بنتاً عذراء تذوب من الرقة

تتحلى فيما يبصره العاشق أو يكتبه الشاعر..

هالةَ نورٍ تمحو إقليم الليل المظلم

و ترشرش عطراً فوق بحار الأحلام المخضرة

تلك البنت النورانية ماذا تفعل حين تجوع ؟

هل تتردد في أن تمسك عصفوراً

لاذ من السكين بحضن يمامة ؟!

(و تضرب بقبضتها مزلاج الشباك فينتفض الأعمى ذعراً)

خذ نفسك أنت مثالاً عملياً في وقت مجاعتنا هذى

و تخيل أنك حزت رغيفاً باللحم المفروم

يتصاعد منه بخار الفرنِ ،

و نازعتك ــ رغم كراهيتي للحم ــ رغيفك

فماذا تفعل يا من تتظاهر بالعطف و بالرحمة ؟

لا ريب تشد رغيفك مني فعل الكماشة بالمسمار

إنسان أنت إذن أم غول ؟!

أبو العينين : **(و هو يبتعد مرتعداً)** بل أنت الغولة

و لسانك يضرب كالسيف على رأسي

النجدة يا ناس

أم علي : **(صائحة وراءه)** لن تلقى إلا حيوانات مثلك

[من شباك بالبيت المقابل تطل امرأة شبه عارية]

المرأة : كفاك صياحاً يا حرمة

صوتك أخرجنيْ من حمامي

و المرأة منا لابد تهيئ للزوج

فاهمة يا عانس ؟

[و بعد عودتها للداخل يسمع صوت طبلة تقترب ثم يظهر محمود الطبلاوي منادياً]

محمود : يا أهل القاهرة المحروسة

بشراكم و هنيئاً لكمو

آن أوان الغوث

مولانا المستنصر أرسلني لأبشركم بالأنباء السارة

بضعة أيام و يحل رخاء يجعلكم في حال آخر

فلقد أرسل مولانا للصحراء الليبية

يستورد منها السمك الطازج

و هناك قوافل تأتي حاملة قمحاً ذهبياً من قبرص

و سفائن تحمل أرزاً من مكة

بارك ربي في مكة

و لسوف ترون بأعينكم قطع اللحم الكندوز

تنهمر عليكم خلف دجاجات الإفرنج

فكلوا و ادعوا لخليفتكم

المستنصر بالله الساهر ليلاً و نهاراً لـــ ...

أم علي : (مكملة) ... خديعتكم

محمود : لرعايتكم

ثقوا في مولاكم الـــ ...

أم علي : (مكملة) الوغد الكاذب

محمود : و اجتنبوا من يسعى بينكمو بالتشكيك

أم علي : تقصدني يا هذا الجربوع

طبعاً تقصدني . فأنا لا أملك مالاً لأبرطلك به

و لست الحسناء لتأخذ قولي برحابة صدر

[و محمود لا يرد عليها بل يرتمي بجوار الحائط يجفف عرقه]

أم علي : تعبت من السير ؟
فلماذا لم تطلب من بيت المال حماراً
تركبه مثل كبار رجال الدولة ؟

محمود : (**بكمد**) لأني .. أحدُ .. صغار رجال الدولة

أم علي : يعني يعتبرونك حيواناً في ذاتك
مع هذا أنت تدافع عن سيدك النطع الأكبر

محمود : عيب يا امرأة أن تصفي مولانا بالنطع

أم علي : اتنيل

محمود : سأبلغ عنك الشرطة

أم علي : (**مشيرة بسبابتها للخلف**) بلغ عن ... تفهمني طبعاً

محمود : (**بدهشة**) من تعنين ؟!

أم علي : تعرف من أعني لكن تتجاهل
(**و بسبابتها ثانية**) من تحيا في درب سعادة

محمود : (**بدهشة أكبر**) درب سعادة ؟!

أم علي : (مندفعة) خلعت قُبلي ضرس العقل
لكن ما زالت تمشي في الطرقات بشعر محلول
و هي تشد ملاءتها اللف على ردفيها
ترفع حاجبها الأيسر للفتيان و تغمز بالعين اليمنى
و تطرقع بين الأشداق لباناً دون مراعاة لأمومتها
مع أنك ترعاها يا مسكين بكل البر . أليست أمك ؟!

محمود : (**بفجيعة**) أمي تفعل هذا ؟!

أم علي بل و تسوّي ما هو أكثر ، و دع الطابق مستوراً

محمود : أمي ؟!

أم علي : لكن لابد أمامك أن تبدو طيبة و نقية . صح كلامي ؟

محمود : (**صائحاً**) أمي يا ملعونة ماتت ساعة ميلادي

أم علي : (**ببساطة**) أنت إذن شخص مختلف عمن كنت أظن

(**و معاودة الهجوم**) مع هذا أنت بلا شك شخص جلاّبٌ للنحس

ضيّعت علينا سيدة فاضلة بمجيئك للدنيا

و اليوم حضرت إلى حارتنا المنحوسة

لتضاعف ـــ بأكاذيبك ـــ ما فيها من أوجاع

(**و بلهجة حالمة**) تعرف يا هذا

في سنك كنت أطير و لا أمشي فوق الأرض

أما الآن فأتحرك خطوات بالكاد

لولا هذا لمشيت وراءك أفضح للناس أكاذيبك

(**و بلهجة عملية**) أنت بلا شك عطشان

عندي ماء كالعسل الأبيض

محمود : (**بضيق شديد**) بعد حديثك لا أرغب في أكل أو شرب

أم علي : كيف ؟! تمشي منذ الصبح بهذا الحر و لا تعطش ؟!

انظر كيف يفح تراب الحارة صهداً مَغلياً

مع أن الشمس انكسرت مثل جريح مهزوم

لو جئت إلينا في الظهر لكنت تبخرت

و لهذا فر الناس من الحارة يلتمسون هواء رطباً

لكن اللغز الغامض يكمن في أنهمو انطلقوا للجبل الشرقيّ

مع أن الجبل جحيم يتلظى

فلماذا فروا من هذي الرمضاء إلى تلك النار ؟!

فكر ثم أجبني .. لكن قبلاً قل لي ماذا تدعى؟

محمود : محمود

أم علي : (**متلاعبة باللفظ**) محمودٌ أنت إذا فكرت بحل اللغز

محمود : (**وهو ينهض**) بل فكرت بأن فراري منك هو الأجدى

أم علي : للجبل الشرقي كأهل الحارة ؟!

أنت إذن يا مسكين جائع

محمود : ولماذا يذهب للجبل الشرقي الجوعى ؟!

أم علي : ذاك هو اللغز

جبل ليس به زرع أو ضرع

فلماذا يقصده الجوعى و يعودون بأعراض التخمة ؟!

جبل ليس به إلا نساك زهَّاد كانوا أصحاباً

لأبي المرحوم

و كان يناقشهم و يخالفهم في بعض مبادئهم

فالعقل إذا كان إماماً أوقف كل الناس بصف واحد

محمود : مع أن كلامك ليس له من هدف إلا تشتيت العقل

أم علي : (**بسخرية**) و يثبت عقلك أن تعلن للناس بيان النحس المستنصر ؟!

قمح من قبرص ؟! سمك من ليبيا ؟!

و سفائن تأتي من مكة بالأرز ؟!

حتى الأكذوبة لا تعرف كيف تنسقها يا صرصور ؟!

محمود : عملي لا يدخل فيه مناقشة بيانات الخلفاء

أم علي : أنت إذن بوق لا أكثر !

محمود : (**بكمد**) تقريباً

أم علي : و أنا أيضاً مزلاج في الشباك فهيا نتعاون

[الشمس الآن مالت للمغيب و محمود بدأ في حمل طبلته]

طبعاً لابد لنا أن نتعاون

ما دمنا نحن – الاثنين – مجرد شيئين

ذلك أن الأشياء كثيراً ما تسهم في عمل الخير

خذ مثلاً إبرة خياط قبطيّ

تؤلم طبعاً لو دخلت في كفي أو في عينك

لكن دون الإبرة ليس يُحاك الجلباب

مثل آخر ..

محمود : (**صائحاً**) قولي ماذا تبغين بلا أمثلةٍ رذلة

أم علي : عند دخولك حارتنا ..

لابد رأيت امرأةً تجلس بجوار الحائط

محمود : ماذا عنها ؟

أم علي : تلك امرأة مخبولة

أما الطفل القابع بين يديها

فلسوف يموت يقيناً ما لم يتعهده عاقل

فإذا جئت إليّ به ...

محمود : (**مقاطعاً**) تخترعين حكايات عن أمي و تسبين الحاكم
و الآن تريدين لأخطف طفلاً لحسابك ؟!

أم علي : (**بغيظ**) أفضل أم مشيك في الحارات تطبل كالأهبل ؟!

محمود : (**و هو ينصرف**) أقسم لأكونن المتسبب في حبسك

أم علي : (**تحدث الشباك**) أنت سعيد يا هذا الشباك بعجزي .. صح ؟
فلأبق إذن مزلاجاً صدئاً فيك إلى أن يأتي يوم نتغير فيه
(و تنسحب إلى الداخل ، بينما يظهر من بعيد بعض من أهالي الحارة بينهم رجل ينشد مجذوباً)

الرجل : أنا في حال تعالى الله ربي أيّ حالِ
ذاب مني الجسمُ حتى محتِ الشمس خيالي
و لقد جُوّعتُ حتى حلَّ أكلي لعيالي
[أثناء ذلك خرجت المرأة المستحمة لتقابل حسنين ــ رجل من العائدين ــ تحدثه همساً و هي تشير إلى شباك أم علي . و الرجل يطلب منها العودة ليلحق بعجوز أشيب]

حسنين : اسمَع يا عم الحمزاوي
لابد لنا أن نعرف من تلك المرأة
أعني من جئت بها تسكن في بيتك

الحمزاوي : سيدة تستأجر في داري غرفة
هل في هذا خطأ يا ولدي حسنين ؟

حسنين : إني لا أتهمك حاشا لله

لكني أسألُ ـــ و الحارةُ مثلي ـــ عن قصتها
مذ جاءت لم نرها إلا جالسةً في هذا الشباك
تتفرس فينا ثم تشيح بيدها في قرف ظاهر
لكن امرأتي منذ قليل سمعتها تتكلم و غريبين من المارة
ثم رأتها بعد ذهابهما تتحدث للشباك

الحمزاوي : أحوال يا ولدي لا يعرفها إلا المصدومون

حسنين : (**يستحثه**) و الحمزاوي شيخ شيوخ الحارات
من يعرف كل التعساء و كل السعداء
العارف بالأحداث جميعاً في لحظتها

المرأة : (**من الداخل بشبق**) يا حسنين

الحمزاوي : اذهب لامرأتك و انس المسألة برمتها

حسنين : لن أتحرك حتى أعرف

الحمزاوي : (**مستسلماً**) فاعلم أن " أم علي " لقب تتخفى فيه

حسنين : ذلك ما خطر ببالي.. فترى ما الاسم ؟

الحمزاوي : (**همساً**) الـــ .. شريفة بنت صاحب السبيل

حسنين : (**بدهشة**) لا يمكن ..
فالأخرى سيدة تنتسب إلى البيت الحاكم و ...

الحمزاوي : (**مقاطعاً**) هي من قلت ، فلا تتعبني بالتكرار

حسنين : (**متفكراً**) تلك إذن أعجوبةُ هذا الزمن المجنون

الحمزاوي : (**باستياء**) لكن هذى ليست مجنونة

حسنين : (**بتحد**) عاقلة هي في رأيك ؟!

طيب سايرني و أجبني
هي ورثت عن والدها شيخ الجامع أموالاً لا تحصى
و كانت زوجَ الشاهبندر حتى مات بلا ولد أو بنت
بالتالي ورثت ثروته .. أو ليس كذلك يا عمّ ؟

الحمزاوي : كذلك

حسنين : كيف إذن بلغت هذا البؤس و في عام واحد ؟

الحمزاوي : ذلك مرجعُه للمستنصر

حسنين : ما دخل المستنصر في هذا ؟

الحمزاوي : في العام الماضي استدعاها كي يطلب منها ...

[إظلام
ثم تسطع بقعة ضوء في أقصى اليمين يرى تحتها المستنصر
و أمامه الشريفة في ثوب راق]

المستنصر : يا شريفةُ .. أنت مني بالنسب
فأبوك رحمة الله عليه كان صهراً لابن خالي
فدعيني باعتباري في مقام الأب منك
أتولى عنك أمرك (**سكتة**)
قد ترملت طويلاً ، فلماذا ؟
بينما الإسلام ينهي عن سلوك الرهبنة

الشريفة : (**بعد صمت**) أتراني قد طُلبت ؟

المستنصر : للذي يدري مقامك

شريفة : من يكون ؟

المستنصر : الخليفة

شريفة : (**بدهشة**) كيف هذا ؟! أنت يا مولاي زوجٌ برباع

المستنصر : سوف أخلي عن سبيلي واحدة

الشريفة : ذاك إثم و ضلال و جريمة

المستنصر : إن تبديلي فراشاً بفراش بعض حقي بالشريعة

الشريفة : يا لتأويل مقيت يجعل الأنثى جماداً

ثم إن العرض هذا ليس من أجلي يقيناً

فلماذا تصنع الفُلْكَ و لا بحرٌ أمامك ؟

(**بعد صمت**) أنت تحتاج لمالي .. كن صريحاً

قل لأجلِ الحكم حتى يستقر

المستنصر : (**بجرح**) تعلمين ...

الشريفة : (**مكملة**) أن جند الترك في أقصى هياج

منذ أن فر الوزير ابن سعيد بالرواتب

إنني أعلم هذا

و أنا ما جئت إلا لأساعد

(**و مخرجة ورقة من جيبها**) تلك أملاكي جميعاً

هي منذ الآن ملك للخزانة

إنما شرطي الوحيد ..

المستنصر : (**و هو يخطف منها الورقة**) أن أوالي فقراءك؟

(**و مقبلاً الورقة**) لك هذا يا شريفة

الشريفة : كن لشعبك والداً

و امسك الزوجات إن البيْن عند الله مكروه بغيض

المستنصر : **(بفم ملئان)** أنت و الله ملاك

[تنسحب بقعة الضوء لتسلط على الحمزاوي و حسنين]

الحمزاوي : لكن المستنصر لم يهتم بغير الضباط الأتراك

فاضطرت شيختنا أن ترهن دار أبيها و كذلك دار الزوج

كي تتصدق بالمال على الفقراء كعادتها

و سداداً للدَين

انتزع الدائنُ منها الدارين

المرأة : **(تطل من نافذتها متزينة)** يا حسنين يا بن رتيبة

حسنين : **(صائحاً)** لن أدخل إلا حين يجيء مزاجي

المرأة : **(منسحبة بغنج)** طاوعني

حسنين : **(للحمزاوي)** فماذا فعلتْ بعد نفاد المال ؟

الحمزاوي : ذهبت تعمل خادمة باللقمة حتى مرضت

حسنين : **(بفهم)** فاستغنى عنها المخدومون بلا شك

الحمزاوي : فتصور سيدةً عاشت في العز طفولتها و صباها

تضربُ في الطرقات على غير هدى

تأكل من ورق الشجر الجاف و تشرب من ماء النيل الراكد

حسنين : **(متحسراً)** ثم ...

الحمزاوي : وقعت عيناي عليها الأسبوع الماضي

تجلس صامتة بجوار النهر

فأتيت بها و جعلت لها هذى الغرفة

حسنين : (**بتأثر**) يعنى لولاك لأفلت منها العقلُ تماماً

جازاك الله على إحسانك هذا

الحمزاوي : هو بعض مما أعطت للناس

ليت الأيام تعوضها و تعوضنا

حسنين : إني لا أنتظر من الأيام الخير

إلا حين يغور النحسُ ابن الجارية السوداء

الحمزاوي : أو يأتينا من عكا بدر الجماليّ

حسنين : (**باستهزاء**) ليؤدي للمحروسة ماذا ؟!

ما سوف أؤديه أنا لامرأتي في الليل ؟!

الحمزاوي : فلننتظر المهديَّ المستورَ إذن

حسنين : (**و هو يدخل داره**) يا عم الحمزاوي .. تلك خرافة

[الظلمة الآن غشيت الحارة . بعد برهة يطل القمر فيرى على ضوئه محمود الطبلاوي و معه عسسيان]

محمود : هي في هذا البيت

عسسي (١) : متأكد ؟

محمود : كانت تتدلى من هذا الشباك المكسور

تشتمني و تسب خليفتنا جهراً

عسسي (٢) : فلندخل و لنسحبها للمخفر

عسسي (١) : و إذا صاحت كممناها

عسسي (٢) : هو ذاك

(فيختفي القمر الطالع وراء سحابة و يسود ظلام كامل)

المشهد الثاني

المنظر : **قاعة في قصر المستنصر**

الوقت : **ظهر اليوم التالي**

التاجر صفوي يدخل متأملاً القاعة و وراءه ابن عمارة

ابن عمارة : أنت بهذا تحرجني يا صفوي

صفوي : يا لإشاعات التجار الرحالة

كدت أصدق أن القصر انقلب إلى أطلال

لكن التفاح يؤكد أن الأحوال تسير

(و متحسساً طبق الفاكهة) و يؤكد هذا أكثر

أن خليفتكم ما زال ينام كعادته للظهر

ابن عمارة : لابد سيغضب مني لدخولك دون استئذان

صفوي : **(بتهوين)** أستأذن من يا عم ؟ ذاك حبيبي

و أنا أعرف كيف ألاطفه ، و أدللّه ، و أسره

لكن قل لي يا بن عمارة

أصحيح أن الضباط الترك اقتحموكم ؟

ابن عمارة : فعلوها في العام الماضي

نهبوا كل ثمين في القصر

و حتى الكتب اتخذوها مصدر تدفئة في البرد

صفوي : و بماذا رد " أبو تَمِّيمَ " عليهم ؟

ابن عمارة : ربي أرسل من يغتال رؤوس الفتنة

عشرة حشاشين لعشرة ضباط

فانظر للتدبير الربانيّ

صفوي : (**ضاحكاً**) تدبير رباني أم تدبير من حاجبنا الثعلب ؟

من هجر ديانته شاباً ليفوز بهذا المنصب في الشيخوخة

ابن عمارة : (**باستياء**) لمَ تعبثُ في جرح ما زال طرياً ؟!

صفوي : (**متراجعاً**) حساس أنت لهذا الموضوع و عندك حق

ماذا يعنينا من أمر المعتقدات و نحن رجال عمليون فــ...

ابن عمارة : (**مقاطعاً بجفاء**) قل ما عندك أو ...

صفوي : (**بمقاطعة مضادة**) عندي .. عندي لخليفتكم جارية مثل القشدة

ابن عمارة : ها هو ذا قد جاء فهيا قَبِّلْ ردفيه

(و يخرج عابساً بينما الصفوي يفتح ذراعيه للخليفة)

المستنصر : صفوي

صفوي : صح لك النوم أبا تَمِّيم

المستنصر : نوم العازب يُمرض صاحبهَ .. صدقني

صفوي : علمنا أنك أرسلت إلى بغداد نساءك

المستنصر : و كذلك أولادي . خذ عرشي .. لكن لا تلمس أولادي

صفوي : فكأنك ما زلت تعاني من خطر الضباط الترك !

المستنصر : و أي معاناة !!

صفوي : و المخرج ؟

المُستنصر : (**و هو يجلس**) أنسيت الآية يا مسلم ؟

صفوي : (**بارتياب**) من أين أتيت بهذى التقوى يا مولانا

المستنصر : لابد من التقوى فهي رداؤك حين تعريك الأيام

صفوي : (**مستفزاً**) يعني صالحت حنابلة القوم ؟!

المستنصر : اجلس يا صفوي و اسمعني

الحاكم مضطر أن يتسق مع الفكر السائد

و خصوصاً في أوقات الأزمات

صفوي : (**بتنطع**) يعني أحجمت إذن عن شرب القهوة ؟!

المستنصر : هي رجس من عمل الشيطان فأتجنبها ما أمكن

صفوي : (**باستبشار**) فإذا جاءت هي تسعى ...؟

المستنصر : (**معاتباً**) يا صفوي

صفوي : (**مصفقاً**) تعجبني . هل تذكر أشعارك فيها

يا سليمان غنني و من الراح فاسقني

فإذا دارت الزجا جة خذها و اعطني

عاطني كأس سلوةٍ عن آذان المــؤذنِ

(**و منفجراً بالضحك**) بذيء جداً .. لكنْ شعر

المستنصر : (**متبرئاً**) هو لأبي نواس

صفوي : (**و هو يجلس**) لكني ــ عمداً ــ أنسبه لك

المستنصر : (**غامزاً**) و لماذا لا تنسب لي جاريةً مثل القشدة ؟

صفوي : ذاك هو القولُ و ها أنت تعود إلى طبعك بعد تلكؤ

المستنصر : (**ممداً قدميه بارتياح**) صفها لي

صفوي : (**و هو ينهض**) تلك فتاة يا مولانا بيضاءُ و قمراء

عيناءُ و حوراء

وطفاءُ و كحلاءُ و زجّاء

المستنصر : يا عيني

خذ لك من هذا التفاح و كل و تكلم

كي يخرج وصفك ممزوجاً بمذاق حلو

صفوي : (**و هو يمشي هائماً**) ذات جدائل من ذهب جُمعت

فإذا حُلّت سالت بأباطحها نحو مدار الكعبين

المستنصر : (**بطرب**) يا وعدي

صفوي : ذات جفون تخطف ظل الشمس إذا ما انغلقت

فإذا انفتحت .. لرأيت بنفسجتين تعومان ببحر الروم

المستنصر : (**صائحاً**) أين النواسيُّ ليسمع

(**و بتلمظ**) حدثني عن شفتيها

صفوي : كرز يكشف عن صفين من اللؤلؤ

بينهما قطرات من شُهْدٍ رضابٍ غنّاء

المستنصر : (**مكوراً كفيه على صدره**) و الـــ ...

الصفوي : تفاح معطار معطاء يشتاق الملمس

أما البطن فضامرة ، و الخصر رخيص ، و الفخذان

يلفان على ريانٍ يتورد حين يُعَرّى

المستنصر : (**نافخاً بشدة**) و الـــ ..

الصفوي : لا . لا . ذاك هو الكنزُ المخبوء

فَمَن ذا يجرؤ ــ غيرُك ــ يا مولانا

أن يسبح في مرمره ، و يرتّبت فيه المرجانَ الفاترَ و الـــ..

المستنصر : (مقاطعاً يصرخ) يا لك من وغد وقح مجرم !

صفوي : (خائفاً) هل أخطأت بشيء يا مولانا ؟!

المستنصر : لا .. لم تخطيء

صفوي : فلماذا تشتمني ؟!

المستنصر : لأنك تجلس في حضرتنا يا بارد

بدلاً من أن تعدو و تجيء إليَّ بهذى التحفة

صفوي : لكن التحفة هذى تتكلف ...

المستنصر : (مقاطعاً) في إمكاني أن أدفع فوراً

[فينصرف الصفوي مسرعاً .و بعد قليل يدخل البكري رئيس الشرطة عابساً ممسكاً بورقة في يده ، و الخليفة يقابله بجفاء]

البكري : هذا تقرير الأمن العام

المستنصر : خطك ليس جميلاً يا صاحب شرطتنا

لخصه و خلصني

البكري : ما زال التجار على موقفهم من إخفاء القمح

المستنصر : عادي . غيره

البكري : حدث شجار في حارة راغب

فأصيب ثلاثة أقباط بجروح خطرة

المستنصر : أمر لا يعتد به . غيره

البكري : هجم الحرفوش المدعو " زهران " على مخبز حسونة
فأثار الفزع و فر بعشرة أرغفة دون سداد
المستنصر : فليأكلها ناراً في جوف أبيه . غيره
البكري : عند المغرب أمسكنا بامرأة كانت تشتم مولانا
المستنصر : يفعل هذا كل رعايانا صبح مساء
شعب وقح شتام بالفطرة
البكري : لكن تلك المرأة يا مولانا تنتسب إليك
المستنصر : (هاتفاً) الشريفة ؟!
البكري : بنت صاحب السبيل
المستنصر : و أخيراً ظهرت ؟
البكري : في حارة شمس
و لقد أبلغنا عنها محمودُ الطبلاوي
و عند القبض عليها أدركنا شخصيتها في الحال
المستنصر : أعزلك إذا كنت رميت بها في السجن
البكري : بل أجلسناها طول الليل معززةً في مكتبنا
تحت حراسة سرداح المخبر
المستنصر : و لماذا لم تأت بها لمقابلتي ؟
البكري : يا مولانا اصبر أرجوك
المستنصر : قل يا بكري
البكري : ذكر الطبلاوي أن شريفة كانت تسعى لـــ ..
المستنصر : لـــ .. إيه ؟

البكري : لأن تسرق طفلاً

المستنصر : يا سلام !

البكري : فيما بعد أتانا شحاذ أعمى و أفاد بنفس الشكوى

المستنصر : ذاك مزاح يعرفه عنها من عاشرها

البكري : فلماذا اعترفت رسمياً في التحقيق بتلك الأقوال ؟

المستنصر : اعترفت رسمياً ؟!

البكري : بل و أقرت باستخدام اسم الغولة

المستنصر : هي لا شك مريضة
و المرض كثيراً ما يجعلنا نهذي

البكري : قلنا هذا حتى فوجئنا بتصرف سرداح

المستنصر : (بزئير) مَنْ سرداح ؟!

البكري : حرفوش كنا روضناه و وظفناه ليحرس مكتبنا ليلاً
لكنّ يبدو أنّ الخائن عاد إلى سيرته الأولى

المستنصر : و ماذا يعنيني من حرفوشٍ خائن ؟!

البكري : هذا المجرم هرب من الخدمةِ فجر اليوم
و هرّب معه السيدةَ شريفة

المستنصر : أنت و كل رجالك مخصوم منكم ...

البكري : (مقاطعاً) تعلم أن رواتبنا لا تُصرف منذ شهور

المستنصر : اغرب عن وجهي

البكري : لكنك لم تسمع بعد النبأ الصاعق

المستنصر : (بسخرية) متعنا

البكري : جاءتنا جارية فور هروب المخبر و شريفة
كانت تبكي و تولول و تعض الأرض
بالكاد فهمنا منها أن رضيعاً كان على يدها ...

المستنصر : (**مكملاً باستهتار**) خطفوه .. أليس كذلك ؟

البكري : و رضيع المرأة هذى طفل من صلبك أنت
(**فيقذفه المستنصر ــ عنيفاً ــ بتفاحة يتلقفها البكري بثبات**)

المستنصر : تعلم يا هذا أني أرسلت نسائي و الأطفال إلى بغداد

البكري : إلا هذا الطفل

المستنصر : (**بتهكم مغتاظ**) نحن نسيناه إذن في درج المكتب

البكري : تذكر أنك بعت جواريّ ممن صرن بلا نفع عندك
واحدة كانت بلهاء
و لهذا لم تتبين ما فيها من حملٍ إلا بعد شهور

المستنصر : (**صائحاً**) و لماذا مني ؟

البكري : لأن الشاري كان خَصِيّاً يحتاج لخادمة لا محظية
و لقد أعتقها زهداً فيها بعد الوضع
و خصوصاً حين رآها ترسم فوق المولود صليباً بالإصبع

المستنصر : (**يهب واقفاً فجأة**) الآن تذكرت
تلك الملعونة أهداني إياها الجرجاويُّ النصراني
إني أذكرها تبكي و تولول و أنا أغزوها تلك الليلة
هي لا تعنيني الآن و لكن يعنيني أن أسترجع طفلي..
أختنه و أنشئه مثل بقية أبنائي

(و يروح يمشي هنا و هناك متوتراً) و أين الجارية الآن ؟

البكري : فرت منا بعد الإبلاغ مباشرةً

المستنصر : **(باستنكار صارخ) هي أيضاً فرت ؟!**

البكري : و كأن الأرض انشقت و ابتلعتها
ماذا كان بمقدور الشرطة أن تفعل ؟

المستنصر : قولك هذا ليس سوى تبرير للعجز

البكري : **(بغضب)** فعلاً .. نحن جميعاً أدركنا الإرهاق
رجل الشرطة لا يقوى – من جوع – أن يصلب عوداً
و طبيعيٌّ أنك تدرك يا مولانا الأسباب

المستنصر : **(صارخاً)** أتؤنبني ؟! مسئولاً كنت أنا عن تحريق النيل ؟!
سبعة أعوام و الماء شحيح في مجراه
ما ذنبي ؟! ماذا أفعل يا ناس ؟!
بل ماذا أفعل بالناس و قد ألفوا الفوضى ؟!

البكري : **(بصرامة)** استعجلْ بدرَ الجماليَّ ليأتي من عكا

ابن عمارة : **(داخلاً)** شخص أعمى يطلب إذناً بمقابلتك

المستنصر : **(مرتمياً على مقعده)** أرسله إلى دار الحبس

ابن عمارة : و ماذا فعل المسكين ؟!

المستنصر : لا تحزن . فالبكريُّ سيجعله يهرب في بضعة ساعات

البكري : محتمل أن الأعمى هذا ..
هو من جاء إلينا يشكوها بالأمس

المستنصر : **(منتفضاً)** أدخله إذن فوراً يا بن عمارة

[فيتوجه الحاجب إلى الباب ثم يعود ساحباً ابن أبي العينين إلى حيث يتمشى الخليفة بقلق ظاهر . بعدها يخرج الحاجب]

المستنصر : ما اسمك يا هذا ؟

أبو العينين : ابن أبي العينين . و أحياناً نحذف لفظة " ابن " من باب التسهيل

المستنصر : فلماذا جئت إلينا ؟

أبو العينين : جئت .. لأني حُمّلتُ خطاباً ممن لا أعرف . أى و اللهِ
و هو خطاب شفويّ مقصود أن يصل إلى مولانا المستنصر

المستنصر : و أنا المستنصر ..

البكري : قل ما عندك يا بن أبي العينين

أبو العينين : مولانا البكري ؟! عرفتك من صوتك . أى و اللهِ

البكري : هل جد جديد منذ تقابلنا أمس ؟

أبو العينين : (بنشوة من انخرط في أمر هام) و أي جديد !
فصباح اليوم . و كنت أسير رضياً في حالي
أتسول مثل بقية خلق الله
و إذا بي أشعر و كأن على عنقي أفعى تتلوى
كانت سكيناً بالطبع و تلك أشد من الأفعى خطراً
ثم سمعت بأذني أنفاساً ساخنةً .. بل ملتهبة
فتسمرتُ مكاني و سألتُ بحشرجة : من ؟! من ؟!
فأتاني صوت يهمس بخوارٍ كخوار الثور الجائع
(و يقلد الصوت) إن كنت تريد العيش إلى الليل
فاذهب من فورك لخليفتك و قل

في قبضتنا طفل ينتسب إليك

و سنذبحه الليلة ما لم ...

المستنصر : (**مفزوعاً**) ما لم ماذا ؟!

أبو العينين : ما لم تُسلِّمني – يقصدني – فديته بالدينار

المستنصر : (**بلهفة**) أدفعها

أبو العينين : عشرة آلاف . أي و اللهِ

و اشترط لهذا ألا تتدخل في الأمر الشرطة

سامعني يا مولانا البكريّ ؟

المستنصر : و كيف يكون التسليم ؟

أبو العينين : جئنا للجد . أي و اللهِ

أنت ستعطيني الفدية و سيحملني حمّارٌ منتظر بالخارج

و الحمّارُ ، كما قال الخاطف ، لا يعرف شيئاً

فإذا لم يتبعنا أحدٌ – تسمعني يا مولانا البكريّ –

أُعيدَ المخطوف إليك الليلة يا مولانا

المستنصر : و من ذا يضمن صدق الخاطف ؟

أبو العينين : قلت له هذا فأجاب بأن الضامن سيدةٌ يعرفها المستنصر

تدعى .. (**و يخبط جبهته**) إيه ..؟! بنت الـــ ... إيه ؟

البكري : (**مكملاً**) صاحب السبيل

أبو العينين : (**صائحاً**) بالضبط .. من ذي ؟

البكري : من جئت إلينا تشكوها بالأمس

أبو العينين : الغولة ؟!

البكري : (وهو يسحبه للخارج) قف بجوار الباب و لا تمش

المستنصر : لست أصدق أن شريفة تفعل هذا

البكري : (عائداً إليه) لم لا ؟ وهبتك الثروة حتى تعدل بين الكل

لكنك آثرت فريقاً دون فريق

فلماذا لا تسعى في استرداد المال ؟

المستنصر : معقول هذا ؟!

البكري : فلنتصورها تجلس في المخفر تحكي قصتها للمدعو سرداح

فيثور الحرفوش العامل في الشرطة بالمجان

و يقرر أن يهرب و يهرّبها ثم يقومان بخطف سليلك

كي تضطر إلى دفع الفدية

و المشكلة الآن هي الفدية .. هل تُدفع أم لا تُدفع ؟

و إذا قررت الدفع فمن أين ؟

المستنصر : (بعد صمت يصيح فجأة منادياً) يا بن عمارة

ابن عمارة : (داخلاً) مولاي

المستنصر : (مخرجاً مفتاحاً من جيبه) في خزنة غرفة نومي

عشرة آلاف و خمسون من الدينارات

دع فيها الخمسين و حَمِّلْ هذا الأعمى الواقف بالباب الباقي

ابن عمارة : (مذهولاً) مولاي .. ؟!

المستنصر : نفذ ما قلت و لا ترهقني

(فيخرج الحاجب بالمفتاح بينما يواجه البكري الخليفة مستنكراً)

البكري : يعني ظهر المال ؟!

المستنصر : (**كالمعتذر**) كنت أُجَنِّبُ هذا المبلغ للشدة

البكري : و اليوم سينتقل إلى أهل الإجرام بكل بساطة !

المستنصر : أتريد إذن أن أترك لحمي يُنهش ؟!

البكري : الآن تحركت لتحمي لحمك

لكنك لم تتحرك من أجل صغار خُطِفوا من قبل

المستنصر : (**صائحاً**) ذاك سليلي و أنا بشر يا سيد

البكري : (**مثله**) و ماذا لو ذهب المال و لم يعد الطفل ؟!

(صفوي يقتحم القاعة و بيده جارية شبه عارية تتلوى)

صفوي : **ها هي ذي يا مولانا**

لا أقبل فيها ما يهبط عن عشرة آلاف

المستنصر : (**صارخاً فيه**) اذهب عني يا صفوي

صفوي : لتكن إن شئت إذن خمسة

المستنصر : قلت لك اذهب

(فيتجمد الصفوي و الجارية مندهشين ، أما المستنصر

فيتراجع أمام نظرات البكري الغاضبة اللائمة)

البكري : كنت ستدفع عشرة آلاف في جارية يا .. يا مولانا ؟!

المستنصر : (**مستخذياً**) إني بشر يا بكري

البكري : (**صائحاً**) و أنا شرطيّ يا مستنصر

المستنصر : (**مرتمياً على مقعده**) يعني ماذا ؟

البكري : يعني لن أترك مال الدولة للص الخاطف

المستنصر : (**بتخاذل**) لا تتدخل حتى لا يُقتل طفلي

[لكن البكري كان قد اندفع خارجاً . و أما المستنصر فيضع رأسه بين كفيه يائساً . يتحرك الصفوي مقترباً منه يسأل بدهشة]

صفوي : ماذا غيَّر حالك في لحظات يا مولاي ؟!

المستنصر : خذ جاريتك و اخرج يا صفوي

صفوي : إن عز عليك المال الآن فخذها بالآجل

المستنصر : (**صارخاً بغضب شديد**) اذهب عني فوراً

(فيسحب الصفوي جاريته خارجاً بها بينما يدخل ابن عمارة)

المستنصر : أرأيت إذن يا بن عمارة
تلك نبوءة جبرانَ النَصرانيّ و قد بدأت تتحقق

ابن عمارة : (**مجفلاً**) شيخ الجبل الزاهد نصرانيّ ؟!
مبلغ علمي أن الرجل اعتنق الإسلام و صار فقيهاً

المستنصر : ما يعنينا الآن نبوءته في شأني

ابن عمارة : و ماذا كانت ؟

المستنصر : قال الغمة هذى ليس يفرّجُها إلا تضحيةٌ من لحم الدولة

ابن عمارة : ذاك كلام مرسل

المستنصر : الآن تحدد في لحم رضيعٍ من صُلبي

ابن عمارة : أي رضيع بينا أصغر أبنائك مفطوم من أعوام ؟!

المستنصر : أنت سمعت كلام البكري

ابن عمارة : إني لا أتسمع يا مولاي

المستنصر : (**بضيق شديد**) بل تتسمع طبعاً ، فلماذا لا تبدي رأيك ؟

ابن عمارة : (بعد صمت) رأيي لا شيء بجانب ما أنت فعلت

المستنصر : (بدهشة) ماذا تقصد ؟

ابن عمارة : لم تتردد في تسليم الفدية إنقاذاً للطفل

أنت هنا بشر تحكمه عاطفة الوالد

لكنك في نفس الوقت سياسيٌّ و أبٌ لجميع رعاياك

من ثم تركت البكريّ لكي يتدخل

لأنك تعلم أن دخول الشرطة في الموضوع يثير الخاطف

فيقوم بذبح سليلك تنفيذاً للتهديد

فإذا فعل .. جعلنا الطبلاوي يذيع بياناً للناس

يتضمن أنك ضحيت بطفلك مختاراً

من أجل ظهور المهديّ المنتظر المنقذ

و هنا يتحرك أعواني بين الناس يقولون

إنك أنت المهديُّ بما ضحيت لأجل الأمة

المستنصر : (صائحاً بانبهار) و يريدون الجماليَّ ليحكم ؟!

بل أنت حكيم الدولة يا بن عمارة

منذ اللحظة أنت كبير الوزراء

ابن عمارة : و أنا سأعيد إليك دنانيرك لا ينقص منها دينار واحد

المستنصر : مادام الأمر كذلك فأنا ... (و ينهض واقفاً)

ابن عمارة : (مكملاً) رغم المسئولية بشر يا مولاي

المستنصر : كم أنت ذكي يا بن عمارة

ابن عمارة : فهل أستدعي الصفوي إذن ؟

المستنصر : (**بحرج**) كنتَ حريًاً أن أنتظر قليلاً

لكني .. أخشى أني أغضبت صديقي هذا

و لقد يرحل عنا منكسر الخاطر

صفوي : (**داخلاً بسرعة و بيده الجارية**) أرحل كيف ؟

تلك بضاعتنا تحت الأمر .. و بالآجل أيضاً

المستنصر : (**فاتحاً له ذراعيه**) صفوي

صفوي : (**دافعاً الجارية إلى ذراعيه هاتفاً**) أبا تَمّيم

ستار

الفصل الثاني

المشهد الأول

الوقت : **نفس اليوم بين الأصيل و المغرب**

المنظر : **درب متعرج في جبل المقطم . أعلى المستوى الأيسر ترى شريفة واقفة خلفها تبة ، و سرداح الحرفوش متجه إليها .**

سرداح : ها أنذا

شريفة : هل آخذك إذن بالأحضان ؟

سرداح : و كأنك غاضبة مني !

شريفة : بتركني و الطفل وحيدين من الصبح و لا أغضب ؟!

سرداح : هل شاهدت الأكياس على ظهر البغلة ؟
أنظرت إلى ما فيها ؟

شريفة : ماذا فيها يا سبع ؟! رؤوس الإفرنج ؟!

سرداح : (متهللاً) فيها بعض من أموالك
جئت إليك به من عين المستنصر

شريفة : بعض من مالي ؟! أي كلام هذا ؟!

سرداح : (صائحاً بنشوة) بل قولي أي دنانير !
عشرة آلاف إلا دينار واحد
هو أجرة ساعي الفدية

شريفة : (بدهشة) فدية من ؟!

سرداح : أمير مسروق أرضعناه حليباً مسروقاً

شريفة : هل خطر على بالك أني سأعيد الطفل إلى المستنصر ؟!

سرداح : و لماذا لا ؟ ما قيمة صرصور حين يُقارن بالمال ؟

شريفة : قيمته يا هذا الحزنبوش الجاهل ....

(لكن يقطع قولها صوت أبي العينين قادماً من الجهة اليمنى)

أبو العينين : يا حمّار النحس أجبني أين ذهبت

شريفة : ابن أبي العينين ؟! استخدمت الأعمى هذا في طلب الفدية ؟!

سرداح : هو ذاك .. فهيا يا سيدتي أرفعك على ظهر البغلة

شريفة : (باستنكار) ترفعني لا

فارسةً كنت أنا في صدر شبابي

لكن سِرْ قدامي و ارشدنيْ لطريق النساك

أبو العينين : (و هو يتخبط أسفل التل) اظهر يا حمّارُ عليك اللعنة

سرداح : (لشريفة) هم أسفل هذا الدرب المتعرج في الناحية البحرية

فانطلقي أنت الآن و سوف أوافيك لديهم فيما بعد

شريفة : (و هي تمضي) ما دام الأمر كذلك فلتتأخر كيف تشاء

سرداح : (متهكماً) طبعاً .. من وجد الأحباب استغنى عن ....

أبو العينين : (صائحاً بغضب ملتاع) يا حمّار .. يا بن الوسخة

(و بينما يهبط سرداح يأخذ هو في الولولة)

أخذ المال و فرّ .. أي و الله

فمن سيعيدك يا بن أبي العينين إلى الحارات العمرانة ؟!

كنت تريد مغامرة ترويها للزملاء العميان ؟! اشرب

قل لهمو حين تعود إليهم في الثغر

فعلاً نحن البحر المالح و الوجه الكالح

و لهذا نُضرَب في كل مكان بالسد....برطوشة

سرداح : (و قد وصل إليه) اخفض صوتك فالجبل مليء بالأسرار

أبو العينين : (مهللاً) رفيقي الحمّار الطيب ؟! عدت إذن ؟

سرداح : (و هو يدس في كفه) أجرتك و أرني عرض قفاك

أبو العينين : ما هذا ؟! دينار ؟! حلم حياتي ؟!

حبي الأول يتجسد في الصحو ؟!

(و بسرعة يدس الدينار في جيب سرواله تحت الجلباب)

لكن .. من تعني بالأشرار ؟ أهمو كُثْرٌ ؟

و هل نحن هنا في جبل مهجور أم مأهول ؟

و ماذا يدعى ؟ الويل ؟ الرحمة ؟ المقطم ؟

و أين ذهبت بأموال الفضية ؟

سرداح : وصلت صاحبها من لحظات

أبو العينين : فأين الطفل و أين البغلة ؟

سرداح : (صائحاً) ما لك أنت ؟

أبو العينين : مالي كيف ؟! محتمل أن البغلة ماتت

طبعاً كانت صرر المال ثقيلة . أي و الله

هل ماتت فعلاً ؟! و الخاطف أيضاً سوف يموت

لن يتركه المستنصر ينعم بالمال طويلاً

أما نحن فسوف نعود كما جئنا سيراً فوق الأقدام

أمر الله علينا . ماذا في أيدينا ؟

سرداح : أنت سترجع وحدك

أبو العينين : (**مندهشاً**) أرجع وحدي بالطفل ؟!

سرداح : (**بصرامة**) قلت أنا وحدك

أبو العينين : وحدي كيف ؟ الخاطف أخذ الفدية

فلماذا لا يعطينا المخطوف ؟

سرداح : (**بصوت مغاير أجش**) قلت لك اذهب

أبو العينين : هذا صوت الخاطف .. أنت الخاطف

و تنكرت بهيئة حمّار حين بدأنا الرحلة

تعرفت يا هذا .. ذلك تدبير متقن . أي و الله

لكن ليس كريماً أن تأخذ هذا المال مقابل لا شيء

فإذا لم تخش المستنصر فاخش الله

سرداح : (**بشراسة**) و من في هذا البلد يخاف الله ؟!

أبو العينين : (**متفاخراً**) أخشاه أنا في بعض الأحيان

سرداح : و لهذا أنت سترجع من نفس الدرب

أبو العينين : (**بعناد**) لن أتحرك إلا و الطفل معي

[فيندفع سرداح بغضب يلقيه أرضاً ، في نفس اللحظة يكون البكري قد حضر من الجهة اليمنى فيندفع إلى سرداح و بيده حجر يضربه على رأسه]

البكري : غُشِيَ على سرداح الوغد

أبو العينين : مولاي البكريّ ؟! جئت ورائي ؟! حمداً لله !

يعني الخاطف و الحَمَّار اسمهما سرداح ؟!

يبقى أن أعرف أين نكون ؟

البكري : (**عابساً**) في المقطم

أبو العينين : و طبيعي أن لسرداح المجرم هذا أعوان

من هم فيما تتصور ؟! أهمو كُثْرٌ ؟!

و أين تراه الطفل المسكين المخطوف ؟!

إني أسأل . و لماذا أسأل ؟ لأساعد . أي و اللهِ

البكري : (**بقرف**) تريد مساعدة الشرطة ؟

أبو العينين : (**هاتفاً**) يا ليت ! لولا إني أعمى

لعدوت من الضباط المحترفين

البكري : طيب ساعدني في تكبيل المجرم هذا

أبو العينين : من عيني . هل عندك حبل ؟

البكري : بل عندك أنت

أبو العينين : (**بدهشة**) من أين ؟

البكري : من جلبابك

(و يندفع إليه ينزع الجلباب يمزقه إلى قطع يربط بها يديْ و قدميْ سرداح الذي بدأ يفيق)

أبو العينين : الدنيا جعلتني أعمى

و الشرطة يا ربي جعلتني عرياناً

طبعاً لن أروي للزملاء الجانبَ هذا من قصتنا

فأنا رجل ممتلئ خجلاً . أي و اللهِ

(و البكري يخرج خنجراً من جيبه متقدماً من سرداح)

البكري : اسمع قولي يا سرداح و راجع نفسك
أنت تمردت اليوم على الدولة
و لقد كان من الممكن أن ينزل بك حكمُ الإعدام
لكنك محظوظ ، فالدولة في هذه الآونة مفككة تقريباً
فانتهز الفرصة و اقبل عرضي

سرداح : (**مضعضعاً**) رأسي ينزف

البكري : (**مواصلاً**) فإذا أنت تعاونت معي
فلسوف تحاكم داخل مكتبنا
يعني لن تُفصل
و عقابك لن يتعدى شهراً في الحبس

أبو العينين : (**لسرداح**) عرض معقول فانتهز الفرصة

سرداح : اسكت أنت فلست على علم بتفاصيل الموضوع

البكري : (**يلكزه بعنف**) تخطف طفلاً في المهد و تتبجح ؟

أبو العينين : و طبيعي أن يهلك هذا المسكين من الجوع

سرداح : لن يهلك . فأنا حين سرقت البغلة من بيت المال
سرقت كذلك إبريق حليب للطفل

أبو العينين : (**هاجماً عليه**) فلماذا لم تسرق أيضاً عنزة ؟
كنا الآن ذبحناها و أكلناها . أي و الله

البكري : (**وهو يدفع الأعمى بعيداً**) فأين ذهبت بصرر المال ؟
و أين الطفل ؟ و أين شريفة ؟

سرداح : سأجيء إليك الطفل إذا أنت حللت وثاقي

البكري : و المال ؟

سرداح : (**بتحد**) هذا حق شريفة

أبو العينين : الغولة ؟

البكري : **بل هو مال الدولة يا بن الكلب**

و شريفة لم يغصبها أحد كي تتنازل عنه

سرداح : (**صائحاً**) ليوزع بالعدل على الفقراء

لكن خليفتكم لم يتقيد بالعهد

فالأولى أن يُسترجع هذا المال لصاحبه الأصليّ

أبو العينين : (**متدخلاً**) **مسألة فيها قولان**

البكري : (**صائحاً**) **هل عينتك يا أعمى لتساعدني في التحقيق؟!**

أبو العينين : أتعيرني بعماي ؟!

لكن الدنيا لا تُبقي المبصرَ مبصر

و الأعمى أعمى

(و يجلس على الأرض مردداً لنفسه)

هذا قول مأثور سوف تردده بعدي الأجيال

(**و متحيراً**) لكن المبصر يمكن أن يفقد عينيه

أما الأعمى فيصير بصيراً كيف ؟!

(و البكري يقترب من سرداح يحدثه بصوت خفيض)

البكري : اسمع يا سرداح

أنت ستأتيني بالمال المسروق

و أنا لن أرجعه للمستنصر

بل أصرف منه رواتب أفراد الشرطة

سرداح : قد تفعل هذا كشريف ، لكن ماذا سيعود عليَّ كلص ؟!

البكري : (**يقترب بالخنجر من وجهه**) جئني بالمال و إلا ...

سرداح : أعطيك الثلث و أعطي الثلث لصاحبة المال

البكري : (**مندهشاً**) و الجزء الثالث ؟!

سرداح : (**بوقاحة**) حقي في العملية

البكري : و أين ستهرب مني ؟

سرداح : بلاد الله لخلق الله

هيا .. حل وثاقي و أنا آخذك إلى مال الـ ... دولة

[فجأة ينقض عليهم رجلان من الحرافيش هما برقوق و الهلب و بيد كل منهما سيف مشرع يحركه في الهواء بعنف]

برقوق : بل تأخذنا نحن إلى مال الدولة يا سرداح

أبو العينين : الدولة صارت ملطشةَ الكل . أي و الله

سرداح : (**مرتعداً**) من ؟! برقوق ؟!

برقوق : و معي الهلب رفيق صباك الفاسد

سرداح : مبسوط يا عم الأعمى ؟ ها قد جاء الأشرار

أبو العينين : (**بترحيب**) و الله ؟! أهمو كُثْرٌ ؟!

برقوق : اخرس يا بن العارية الأعمى

و ارم الخنجر يا بكري دون كلام

سرداح : (**متوسلاً**) نفذ يا مولاي و إلا بتر ذراع

[البكري يلقي الخنجر مستسلماً ليلتقطه الهلب

يحركه أمام سرداح ثم يدفع به في خده]

الهلب : لك وحشة

سرداح : (**بألم**) خدي يتمزق

الهلب : (**بتهكم**) و قلبي أيضاً منذ هجرتك

أبو العينين : (**متضرعاً**) فاذكر ما كان و لا تقتله

الهلب : اخرس أنت و إلا

أبو العينين : خرست . خرست تماماً يا هلب

برقوق : (**لزميله**) لابد نقيد هذا الشرطيّ لنأمن جانبه

الهلب : (**مشيراً إلى الأرض**) و لدينا بعض خروق قد تنفع

أبو العينين : (**كأنه يقدم رشوة**) هي من جلبابي . أي و اللهِ

(فيبدأ الهلب بعقد الخروق يقيد بها يدي البكري من خلف)

الهلب : لا يوجد ما يكفي للقدمين

برقوق : قميص الأعمى

(فيقوم الهلب بنزع القميص بين ولولة أبي العينين يمزقه
مقيداً به قدمي البكري أثناء ما كان برقوق يستجوب سرداح)

برقوق : هل نبدأ يا سرداح ؟

سرداح : نبدأ ماذا يا برقوق ؟

برقوق : تستعبط ؟! أين المرأة و المال ؟!

سرداح : بأية صفة تسأل ؟

برقوق : هل نحن أقل بنظرك من هذا الشرطي -
من كبلك على هذا النحو

سرداح : تلك وظيفته ليس يُلام عليها

برقوق : نحن كذلك صرنا شرطيين

أبو العينين : (**بفم مفتوح**) و الله ؟!

برقوق : في تنظيم سريٍّ ترعاه الدولة

أبو العينين : (**بالفم المفتوح**) و الله ؟!

برقوق : و لكي تتأكد يا بكري فسأعطيك أمارة

بأمارة أنك أرسلت إلى بدر الجمالي تستعجله كي يحضر

الهلب : (**غامزاً بعينيه**) و أمارة مولود الجارية النصرانية

برقوق : أنت تتبعت المخبر سرداح و نحن تبعناك

فلننه الأمر إذن و لنرجع دون خسائر

بالطفل و بالمرأة و المال

الهلب : (**ملوحاً بالسيف قريباً من عنق سرداح**)

سرداح سيتكلم يا ريس

سرداح : اسمع يا هلب . أنت رئيسك برقوق . و أنا مرؤوس للبكري

و لهذا .. لا أتكلم إلا بأوامره الشخصية

برقوق : قلنا .. نحن جميعاً نعمل لحساب الدولة

البكري : سله إذن يا سرداح لماذا قيدني إن كان زميلاً حقاً

برقوق : يا هذا نحن ...

سرداح : (**مقاطعاً**) سفاحان خسيسان و كذابان

و أنا لا أتعاون إلا مع شرفاء

(الشمس غربت . و الهلب قد راح الشرر يتطاير من عينيه يتقدم من سرداح يضربه بقبضة يده على أم رأسه و كذلك يفعل بأبي العينين الذي يلتفت دائخاً)

أبو العينين : أي صفير هذا يَدْوي في أذنيّ ؟!

الهلب : هيا نضربهم بالسيف ؟

برقوق : **(يجذبه بعيداً هامساً)** أجننت ؟!
مأموريتنا أن نجد الطفل المخطوف و نذبحه
ثم نعلق في رقبة سرداح التهمة
... اني أبصر أشباحاً تتحرك في الناحية البحرية

الهلب : **(هامساً مثله)** أولئك " جبرانُ " و عُصْبَتُهُ النساك

برقوق : أخشى أن يجدوا المرأة و الطفل فتفسد خطتنا
و لهذا لابدوأن نتحرك فوراً
و يقيناً هي لم تذهب أبعد من هذا الموضع

الهلب : و الأعمى هذا .. نتركه دون قيود ؟

برقوق : بل نربطه مثل زميليه و إلا حل وثاقهما
(فيندفع الهلب إلى ابن العينين صائحاً فيه)

الهلب : اخلع هذا السروال

أبو العينين : **(يجأر)** إلا سروالي
أموت و لا أخلع سروالي
يا تاس تحت السروال اللا شيء

البكري : **(للهلب)** يمكنك استخدام عمامة رأسي

(فينتزعها الهلب يمزقها و يفتلها مقيداً أبا العينين و هو يقول)

الهلب : وفرت علينا رؤية عورته البشعة

برقوق : يعجبني من يحترم زميلاً في الأسر

(و راكلاً سرداح) أما أنت فتخذل زملاءك يا خائن . إتفو

(و يبتعد في الجبل مع الهلب ، بينما الظلمة تهبط رويداً)

أبو العينين : (منشداً) و ديناري هنا في جيب سروالي

فداك العمرُ و الأحبابٌ يا مالي

(و بجدية) قول أشبه بالشعر . أي و اللهِ

كان من الممكن أن أصبح أحد الشعراء

لولا أني أميٌّ و بليدُ الذهن و جوعان

إيه جعلتك الدنيا أعمى يا بن أبي العينين فقلنا حظك

عرتك الشرطة جزئياً قلنا لا مانع

قيدك اللصان فقلنا الصبر جميل

لكن كيف الصبر على الجوع يمزق أحشائي ؟!

سرداح : تتحدث عن ألم الجوع و أنت ستُذبح هذى الليلة ؟

أبو العينين : (مفزوعاً) ماذا ؟ ماذا قلت ؟!

سرداح : تلك مصائرنا أمست واضحةً لا مهرب منها

فلسوف يعود الهلب و برقوق بجزار متخصص

و لعلك أول من يُذبح منا إذ أنت سمين مثل البقرة

و حين يجيء أهالي الحارات صباحاً

(و يقلده) و همو كُثْرُ ، ستباع لهم بالرطل . أي و اللهِ

أبو العينين : (**برعب جنوني**) عما تتكلم يا هذا ؟!

سرداح : ذلك شأن الرجلين مع الأسرى
يبتدآن الذبح بمنتصف الليل
و يظل التقطيع إلى قرب الفجر
و صباحاً يأتي الناس ليبتاعوا الرطل بمليم

البكري : (**مصدوماً**) كيف حجبت المعلومة هذى عني ؟!

سرداح : يعرفها معظم أتباعك
و كثيراً ما يأتي الواحد منهم يأخذ حصته رشوة

أبو العينين : (**باكياً**) أعمى . عريان . و أسيرٌ في القيد و قلنا ماشِ
لكن أن أذْبَح كي يأكلني الناس فهذا ...
(**و يتوقف ثم يقول بلهجة الاستغراب**)
شيء رَطِبٌ و دفيءٌ في سروالي . ماذا يُدعى ؟

البكري : (**مع ظهور القمر شاحباً**) لابد لنا أن نهرب فوراً

سرداح : إني أعرف قوماً زهاداً في الناحية البحرية
يمكننا إن نحن بلغنا موقعهم ...

أبو العينين : (**مقاطعاً بهلع**) كيف و نحن جميعاً مربوطون و مبلولون ؟!

سرداح : نتدحرج حتى نصل إلى السفح

أبو العينين : أعمى ، عريانُ ، و جوعانُ ، و مبتل
و كذلك يطلب مني أن أتدحرج مثل الحية !

سرداح : فاجلس مرتاحاً و انتظر الجزار

أبو العينين : لا .. لا. إلا الجزار

أتدحرج أتدحرج . لم لا ؟ أي و اللهِ

(يعود القمر إلى الاختفاء وراء سحابة ، و تصفر ريح قوية بينما يبدأ ثلاثتهم في التدحرج نحو العمق)

إظلام

المشهد الثاني

الوقت : **أصيل اليوم التالي**

المنظر : **كهف في الجبل يتسلل إليه ضوء الشمس**
الرجال الثلاثة راقدون ، و يلاحظ أن أبا العينين يرتدي جلباباً
، و حيث ينهض بجذعه و يمد يديه جانبيه لا يلبث حتى
يصرخ في رعب

أبو العينين : جثث حولي ؟!
(و يندفع قائماً يريد الهرب لكنه يصطدم بالجدار ، و إذ يسمع غطيط الرجلين يهدأ فوراً)
ليست جثثاً . هذان هما البكريّ و سرداح
(و ماضياً يتحسس الجدار و هو يصيح)
نحن هنا يا أصحاب الموقع
(و لنفسه) محتمل جداً أن ذهبوا لصلاة الظهر
طبعاً هم ناس ملتزمون
(و منادياً بالداخل) يا سرداح انهض لتصلي
و يا بكريُّ استيقظ لتؤدي فرضك

سرداح : **(ينهض جالساً)** كل عظامي تتوجع

البكري : **(ينهض مثله)** و أنا لا أقوى أن أتحرك

سرداح : يبدو أنّا قضينا اليوم نياماً

أبو العينين : يعني لن يدرك أيكما ظهراً أو عصراً ؟!
من ضيّع فرضاً في الدنيا قضّاهُ على عتباتِ جهنم
لكن لا بأس . فرب الكون غفور و رحيم
(و بتلمظ) كان فطوراً ملكياً فاجأنا النساك به
و كأنّا عدنا لرخاء الزمن الماضي . أي و اللهِ
حساء بالفُلفل و ثريد بالخبز وبالأرز !
أما اللحم فما ذقت طوال حياتي أشهى منه
أو ليس كذلك يا سرداح ؟
أو ليس كذلك يا مولانا البكري ؟
(و لكن الرجلين يتبادلان نظرات الكمد صامتين)
فيم الصمت ؟! أجيباني
مفروض أن نسعد هذا اليوم و نرتاح
و لماذا لا ؟ فلنحسب ما أُعطينا من نعمٍ شتى
كدنا نُقتل بالأمس على أيدي سفاحين رهيبين
لكنا أفلتنا . أي و اللهِ
و تدحرجنا نتوجع فوق الصخر المسنون القاسي
مع هذا لم نتمزق إرباً
و أخيراً عثر علينا النساكُ قبيل الصبح
(وبسعادة) فأعطوني جلباباً
و أمدونا بطعام أشهى من قبلات الغانية الحسناء
أترانا في عيد الأضحى أم ماذا ؟! لِم لا أسمع رداً ؟

(و بقلق مفاجئ) فيم تفكر يا سرداح ؟

(و بقلق أشد) .. ما هذى الأفكار النجسة ؟!

نحن هنا في حضرة نساك يخشون الله

زهادٍ مؤتمنين على الأنفس

و محال أن لهم صلةً بالهلب و برقوق

سرداح : لم أعماك الله و لم يخرسك ؟

البكري : **(في غم زائد)** كي يضرم فينا نار التعذيب

أبو العينين : **(ملتاعاً)** يعني أنت كذلك تتصور أنَّا أُطعمنا لحماً ... ؟!

سرداح : لن يسكت هذا الأعمى حتى نفقد عقلينا

البكري : أخنقْهُ إذن و أرحنا منه

أبو العينين : **(منتفضاً مهتاجاً)** يخنقني ؟!

و لماذا لا يذبحني ذبحاً شرعياً

كي يصلح لحمي لعشائك يا عار الشرطة

و لماذا لا ؟! ما دمت أكلت و أنت عليم

بالنسبة لي فأنا لا حرجَ عليّ فإني أعمى حمداً لله

البكري : **(هاجماً عليه)** لابد أجز لسانك من حلقومك

[لكن يوقفه دخول الناسك زكريا هاتفاً في جذل]

زكريا : بشراكم يا أخوة

أبو العينين : **(مسروراً بإفلاته)** أهلاً أهلاً بأخينا زكريا

أو لست أخانا الناسك زكريا بالفعل ؟

زكريا : لك موهبة في تمييز الأصوات تثير الدهشة

أبو العينين : (بفخر) إني أعمى لكن سمعي جبار . أي و اللهِ

مع هذا كنت أسمى — في إسكندرية — الأطرش

من باب التهويل . أي و اللهِ

لكن فيم البشرى يا بن العم

زكريا : فيما كنتم غرقى في النوم

رحنا نبحث في كل مكان عن ضيفتنا الأخرى

و لقد عثر البعضُ على بغلتها ميتة*

ثم وجدنا المرأة و الطفل أخيراً — في كهفٍ — شبه صريعين

أبو العينين : حمداً لله . فهيا آتونا بهما كي نرحل

زكريا : لا لا . من ذا يرحل ؟!

أبو العينين : (متوجساً) و لماذا لا ؟!

زكريا : تعلم أن العجلة من عمل الشيطان

و كذلك من حق الضيفة أن ترتاح و تأكل

أبو العينين : أي و اللهِ . تلك المرأة تحتاج إلى إفطار خاص !

زكريا : و الطفل بلا شك يحتاج إلى حمّام دافئ

و على أية حال لن يرحل أحد منكم قبل لقاء الشيخ

مولانا جبران كبير جماعتنا

أبو العينين : و هل أنتم كُثْرٌ ؟

زكريا : تسعة عشر فلا نزداد و لا ننقص

أبو العينين : يعني كُثْرٌ

زكريا : و الآن سأمضي لأتابع حال الضيفين

(و يخرج من ميل الشمس إلى الغروب)

سرداح : **(بريبة)** لم يذكر شيئاً عن صرر المال

البكري : و العدد المذكور ألا ينذر بالشر ؟

أبو العينين : ألأنهمو كُثُرُ ؟!

سرداح : **(هاجماً عليه يلكمه)** إياك و ترديد الكلمة هذى

أبو العينين : و لماذا لا ؟ هي من أعمال الحمداني الشاعر . أي و اللهِ

(منشداً) فقلت كما شاءت و شاء لها الهوى

قتيلك . قالت : أيهمْ ، فهمو كُثُرُ

البكري : دعك من الشعراء و أقوال الشعراء

و اذكر ما جاء بآيات القرآن عن التسعة عشر

أبو العينين : **(بأسف)** لو كنت حفظت القرآن لأصبحت وزيراً

لكن عماي و حظي

البكري : **(مقاطعاً بغضب)** لعن الله عماك و حظك

سرداح : اخرس يا بن الفاجرة العمياء

أبو العينين : **(بتنطع)** أمي كانت مبصرةً . أي و اللهِ

[فجأة يسمع صوت نعيب غراب بالخارج فيهبط على الرجال الثلاثة صمت ثقيل بينما الشمس تغرب . بعد برهة يتنحنح أبو العينين قائلاً بصوت خافت]

أبو العينين : عندك حق يا سرداح

لابد لصوتي أن يخرَس

فلقد غاب المرح الصافي عن قلبي فجأة

و لعلي بعد جريمة أكل اللحم البشريّ أصوم عن القول تماماً

البكري : **(يهب مرتجفاً)** ما دمت تبيّنتَ جريمتنا

فأنا أدعوك الآن لكي تتكلم

لأنك بعد الآن ستغدو جزءً من هذا الليل القادم

ليل الذئب الطاعم لحم أخيه

[الظلمة الآن أطبقت على المكان و صمت كثيف معها ، برهة ثم يدخل زكريا حاملاً مشعلاً يعلقه على " قفيز " في حائط الكهف و هو يقول]

زكريا : ها هي ذي ضيفتنا الأخرى

جاءت راغبة في لقياكم

شريفة : **(داخلة تتوكأ على غصن شجرة يابس)** جئت إذن يا سرداح؟

سرداح : سميني التعس الفاشل

شريفة : و البكريّ رئيس الشرطة ؟

البكري : **(بيأس)** قولي من كان رئيس الشرطة

شريفة : و ابن أبي العينين كذلك ؟

أبو العينين : الأعمى بصراً و بصيرة

شريفة : **(بدهشة)** تبدون حزانى منكسرين

البكري : و لسوف تكونين كذلك ما دمت أكلت ثريد القوم

شريفة : **(و هي تجلس على نتوء بارز)** لم أقبل منهم هذا الصِنف

فأما لا آكل لحماً مذ كنت صبية

البكري : **(بانتباه شديد)** فماذا أُطْعمتِ إذن ؟

شريفة : بضعة زيتونات و رغيفاً . لكن فيم سؤالك هذا ؟

(فيتبادل البكري و سرداح النظرات الملتاعة . أما أبو العينين فينزوي صامتاً يقبع في ركن قصي)

شريفة : جئت لأخطركم أني أعطيت المال جميعاً للنساك

(و لسرداح) غضبان أنت لهذا ؟

إني صاحبة المال و من حقي أن أمنحه من شئت

لكني سأعوضك بهذا القرط الذهبيّ

سرداح : **(و هو يرد يدها)** إني لا أرغب في شيء يا سيدتي

أبو العينين : **(يهب بلهفة و قد نسى ما به)** أعطينيه أنا

شريفة : مقابل ماذا يا ذا الوجه الكالح ؟

أبو العينين : **(و هو يخطف القرط يدسه في جيبه)** حلوى

كنت تريدين الطفل ، و ها هو ذا قد وصل إليك

فلماذا لا آخذ منك الحلوى

شريفة : **(بارتياح)** فعلاً وصل الطفل إلى و سوف يظل

فأنا لن أرجعه للمستنصر ذاك الفاسد

و لأني أيضاً لا أأتمن عليه الأم المجنونة

أبو العينين : **(بلهجة المحقق)** يعني .. أين سيذهب ؟

شريفة : سأربيه بهذا الجبل النائي بين النساك الزهاد

البكري : **(هازئاً)** زهاد إلا في اللحم الطازج

شريفة : ماذا تعني ؟

سرداح : لن تجدي بين القوم مكاناً فهمو تسعة عشر

عدد لا ينقص أو يزداد

شريفة : كيف و قد أخذوا الطفل بلهفة آباء كرماء

البكري : (**ساخراً**) كرماء جداً ؟

(يدخل جبران ، و هو شيخ وقور ذو لحية بيضاء)

جبران : طبعاً آباء كرماء

و أناس قد خلقوا من أجل العدل

شريفة : أسمعتم ؟!

جبران : (**بأسف**) لكن العدل يغم على ألباب تطلبه قولاً

في حين تفرط فيه على ناصية الأفعال

أبو العينين : (**عائداً إلى طبيعته**) اضرب مثلاً كي نفهم . أي و اللهِ

جبران : مثلاً لو أن ولياً للأمر انحرف و قال الناس أطيعوه

لهوى سيف يبتر كف العدل

أبو العينين : (**بمماحكة**) هل من مثل آخر عندك ؟

جبران : لو نشبت حرب لخَرَاجٍ يُطلبُ و خزائنَ تملأ

و قال الناس ـــ رياءً ـــ قتلانا شهداء

لأصاب الفالجُ أطراف العدل

أبو العينين : زدنا معرفةً يا مولانا

جبران : لو فُرضت أفكار و عقائدُ بالجبر على الأنفس

ثم ادعَّت الأنفسُ أن عقائدها مختارة

لانطفأت في وجه العدل العينان

أبو العينين : (**بفرحة بلهاء**) مثلي مثلي . أي و اللهِ

جبران : فإذا اجتمعت تلك الأوصاب بأرضٍ
حقَّ عليها أن تتلاشى بالفجار و بالأبرار بلا تفريق
شريفة : (**بحدة**) اسمع يا شيخ
أقوالك تلمع مثل الضوء على أغصان الحكمة
فلماذا أشعر أن بداخلها ناراً
توشك أن تلتهم الأخضر و اليابس ؟
[يعود زكريا حاملاً مقعداً خشبياً فيجلس وهدان عليه متجاهلاً شريفة و مستكملاً قوله]
لكن جماعتنا لم تمكث خانعةً حتى يفنى الكل
فتنبأنا ، و نبوءتنا وحي من عند الله
أن المهديّ المستور سيأتي في هذه الأيام
حيث اقترب الشرُ كثيراً من غايته القصوى
من ثم رأينا أن تمام الشر البشريّ
يتمثل في ذبح بريء لم يتلوث بعدُ بظل خطيئة
من ذا ؟! شخص منكم ؟! لا يمكن
فخطاياكم – مثل الناس جميعاً – واضحة معروفة
لكن رضيعاً في المهد ...
شريفة : (**تهب هاتفة مقاطعة**) تلك هي النارُ و قد بدأت
تظهر من تحت الماء
زكريا : ليتك تنتظرين إلى أن يفرغ مولانا
أبو العينين : (**زاجراً**) انتظري قلنا

(و لجبران) أكمل يا مولانا أكمل

جبران : كانت تلك نبوءتنا

أبلغتُ بها المستنصرَ من عام كي يتغير

لكن يبدو أن التغيير محال لو مس مصالح جبار فاسد

و تشاء الأقدار بأن يأتينا طفلُ المستنصر بالذات

لم نخطفه لثأر عند أبيه كما فعلت الـ ...

(و مشيراً إلى السيدة) ... سيدةُ شريفة

لم نطلب فديته لنُحَصِّلَ مالاً يا سرداح

لم نقبل أجرته ديناراً نخفيه بجيب السروالِ ،

كما فعل أبو العينين

و كذلك لم نسع لنجدتهِ ،

لنُثْبت عند الحاكم – يا بكريُّ – وظيفتنا

أبو العينين : **(صائحاً بانبهار)** هذا رجل مكشوف عنه ، أي و اللهِ

شريفة : **(صائحة بغضب)** بل هو رجل غشاش و لئيم

زكريا : احترمي نفسك حتى لا نضطر لتأديبك

جبران : **(هادئاً)** بل دعها تتكلم يا زكريا

زكريا : **(محتجاً)** تصفك يا مولانا باللؤم و بالغش !

جبران : قلت لكم من قبلُ لماذا لا نتصرف كالحكماء الإغريق

لم لا يصبح حق التعبير متاحاً للكل ؟

(و للآخرين) أما أنتم يا من جئتم بالمشكلة إلينا

فلسوف نعلمكم أسلوب ممارسة الحكم الشعبيّ

و لهذا لن نعطيكم حلاً
بل نجعلكم تصلون إلى الحل بأنفسكم
فثلاثة أصوات منكم تكفي لصدور قرار بمصير الطفل
فإذا شئتم أن يأتي المهديُّ المنتظرُ يغيث الأمة
فأشيروا بالذبح
أو فاختاروا بؤسَ الناس جميعاً

زكريا : **(مكملاً بتحريض)** إنقاذاً لرضيع واحد

جبران : فإذا وقف اثنان إزاء اثنين
سيرجح أيكما أولُ شخص يأتينا
قبل الآذان بظهر الغد
عدل هذا أم لا ؟

[و ينسحب و وراءه زكريا حاملاً المقعد]

أبو العينين : هو عدل في رأيي

شريفة : **(صائحة بغضب)** بل خُدْعة

أبو العينين : **(و قد تحول إلى الجدية)** كفّى يا هذى المرأة
كفي عن توجيه الدفة في قاربنا
فأنت ــ و لا غيرك ــ من ألقانا في هذا اليم

[بعد صمت تنهض شريفة متوكأة على الغصن تتمشى بصعوبة و هي تردد بأسى و لوعة]

شريفة : لعلي كذلك ، لكن لماذا ؟
لأني رأيت بلادي خلال الدروب

تجر التعاسة و البؤس و المسكنة
و كان هناك الثراء الغريب السفيه
توَّحَشَ ، يشرب من عرق الكادحين
و يأكل ما يزرعون و ما يحصدون
و حين أتتنا المجاعةُ صار الجميع ذئاباً
و راح الصدامُ المؤكدُ ينذرنا بالفناء كأمة
فقلت لنفسي ابذلي المال يتْبَعْكِ الأثرياءُ
فنجتاز محنتنا مثل عائلة واحدة
بذلت ، و لكنني كنتُ يا حسرتي واحدة
و ظل كما كان وجهُ الخطر
و في ذات يومٍ ،
رأيت رضيعاً على صدر جارية تتسول
و كانت تولول من جوعها
أو تقهقه في غيبة العقل لاعبةً بالتراب
و كان الرضيع يولول من ثديها الفارغ المنكمش
فقلت لنفسي : أنقذيه
و إلا فأنت كمزلاج نافذة قد عَرَاهُ الصدأ
و حاولت جهدي إلى أن أتيتُ به للمقطم
فأسلمته ــ و الدنانيرَ ــ للناسكين
و ما كنت أحسب أنهمو من زبانية الويلِ ،
ينتظرون الضحية

و ليس بعيداً عن الظن أنهمو دبروا كل هذا

من البدء للخاتمة

(و مرة أخرى يسود صمت مطبق ، لا يقطعه إلا نحنحة أبي العينين الذي ينهض قائلاً بلهجة القاضي)

أبو العينين : قد نغفر ما دبرتِ بحسن النية

لكنك أسرفت كثيراً في تجريم النساك

و الرأي هنا ....

شريفة : (**تقاطعه صائحة**) و متى كان لمثلك رأي يا أعمى العينين ؟

أبو العينين : (**بجدية كاملة**) من صغري و الكل يعيرني بعماي

و لأني كنت أخاف النبذ و أخشى الإقصاء

فلقد سايرت الساخر منهم .. و المتفاخر و المتشفي

مع أني أبْصَرُ منكم يا أصحاب الأعين

مثلاً .. أنت بلا شك تنحازين لهذا الطفل البائس

حاصرةً دورك في نجدته ، فلماذا ؟!

لأنك ـ عامدةً ـ تعمين عن العجز الماثل فيك

أعني عجزك عن إنقاذ الأمة

سرداح كذلك أعمى يتخبط في ظلمات النفس

لا يعرف هل هو لص أم شرطيّ

و لهذا لن نسمعه يبدي رأياً في مسألة الطفل

و البكريُّ الصارم هذا

يجهل أن بداخله قلباً أجدر بالوالدِ منه برجل الأمن

يبقى الباردُ إبنُ أبي العينين
من يعلم أن التضحية بفرد واجبة من أجل نجاة الكل
فالأمة حين تضحي بشباب يهلك في الحرب ..
تفعل هذا كي تنتصر على الأعداء
يُقتَلُ ألف أو ألفان كي يتمتع بالعيش ملايين
ذلك يحدث في كل زمان و مكان
فلماذا يستثنى هذا الطفل من القاعدة العامة ؟!

شريفة : أطلقتَ عليّ بحارة شمس اسم الغولة
و أنا سوف أسميك بهذا الكهفِ الغولَ الأعمى الشرير

أبو العينين : عدنا لمعايرتي بعماي !
يا سيدتي .. عندك سرداح وبكري
و هما ليسا غولين ، و ليسا شريرين
و لكل عينان و قلب
فلماذا ليس يرقّان لآلامك ؟

شريفة : (لسرداح متوسلة) قل شيئاً يا سرداح و لا تهرب

سرداح : (بيأس) إني في قلب الطوفان فكيف لمثلي أن يتكلم ؟

شريفة : (للبكري) و أنت كذلك آثرت الهرب من الطوفان ؟
هل يسمح دينُك أن يُذبح هذا الطفل المسلم ؟

البكري : (بصوت لا يكاد يسمع) هو ينتسب إلى أم نصرانية

سرداح : (منتبهاً) ماذا ؟! ماذا قلت ؟!

أبو العينين : ينتسب إلى أم نصرانية ؟!

البكري : (**بنفس الصوت الخافت**) **هو ذاك**

أبو العينين : (**مصفقاً**) **يعني هو مازال على دين الأم**

سرداح : **هل هذا حكم الشرع ؟**

أبو العينين : (بلهجة الفقيه) حتى يتلقفه والده و يسمله

سرداح : هذا طوق نجاة بالنسبة لي

أبو العينين : طبعاً .. فلماذا تحميه و تترك أمتك لتفنى ؟!

(**و لشريفة و هو يفرك يديه**) و الآن و قد صرت على بينة ..

شريفة : (**مقاطعة**) إني كنت على بينة من قبل

أبو العينين : (**بذهول**) ماذا ؟!

شريفة : تلك الجارية النصرانية كنت أراها

دوماً كانت باكية في قصر المستنصر

و حين رأيت الطفل على يدها و العقل يجافيها في حارة شمس

قلت لنفسي :

هذا طفل كُتب على كفيه ، من المهد ، سدادَ الجزية

و كُتب على خديه التصغير الصاغر

كُتب اللطمُ على عظمِ قفاه

فيا لي من مزلاج مكسور لا يصلح لأداء وظيفته

لو أعطيت له ظهري

سرداح : كان بإمكانك إبلاغ المستنصر والده كي يحميه

شريفة : فأين الوالد للأطفال الأقباط ؟!

مفروض أن المستنصر والدهم أيضاً

لكن المستنصر **لا شيء**

و السابق للمستنصر **لا شيء**

و السابق للسابق للمستنصر أيضاً **لا شيء**

و إلى أن يأتيَ زمنٌ ليس يفرق بين الناس لدينٍ

أو جنسٍ ، أو عرق

فالحكام جميعاً **لا شيء**

سرداح : (**باستخذاء**) إن نحن ذبحنا هذا الطفل الآن

أتانا المهدي العادل ليحل جميع مشاكلنا

شريفة : و متى كان العدل وليداً للظلم ؟!

المهديّ العادل هذا وَهْمٌ متوهم

ألَّفه من لا يقوون على رد الظلم بأنفسهم

لكني نُشِّئتُ على رد الظلم و إن نزل بقاتل أمي

كيف إذن لو أُنزل برضيع لم يُذنبْ قط ؟!

(صمت . تتجه بعده شريفة نحو البكري)

شريفة : ألديك جواب غير جوابي يا صاحب شرطتنا ؟

البكري : (**خائراً**) إني مازلت بلا صوت في هذا الموضوع

سرداح : و أنا أيضاً مثل رئيسي

(فتقترب شريفة من أبي العينين دامعةً)

بالأمس أبيت على نفسك خطف الطفل

فلماذا ترضى الآن له أن يُذبح ؟!

حاول أن تتصوره منتفضاً يتلوى

و السكين يجز عظام الرقبة

ستقول أنا أعمى . و لهذا أدعوك لتبصره بالقلب

أبو العينين : (**بجمود**) مذ غاب المرح الصافي عن قلبي

و أنا لا أبصر في ذهني .. إلا أرقاماً في أرقام

شريفة : (**و هي تنشج**) حتى الغول يصادف أن يأسى لرضيع بائس

أبو العينين : (**و هو يبتعد عنها**) نحن هنا صوتان على الضد

و أما هذان فليس لأحدهما صوت في مجلسنا

فلنبق إذن ننتظر القادم كي يحسم

شريفة : (**مخنوقة بالدمع**) من يمنحني القدرة

كي أتخلص من صَدَإِ المزلاج ؟!

ستار

الفصل الثالث

المشهد الأول

ضحى اليوم التالي

يسمع صوت تردده الرياح بعيداً يهتف : يا أهل القاهرة المحروسة ، الشعلة الآن مطفأة . و الرجال الثلاثة راقدون على الأرض . أما شريفة فتقف أمام فتحة الكهف تحادث الرياح الترابية العنيفة .

شريفة : فيم اندفاعك مثل هذى الريحِ يا بنتَ السبيل ؟
و كأن هذا الكون منذور لما أنت اشتهيتِ ؟!
و كـــأنك الأحلامُ تنشر عطرها في كل واد
حلم المحبة كرمةٌ ، و الخير نخلٌ ،
و المحبة أقحوان يبتسم
هلا أفقتِ الآن مثل الريح في يدها الهباء
لن تركلي كل الطغاة عن العروش بما حلُمت
حتى إذا رسمتْ عيونُك وردةً ترنو إلى حضن يضم
لرأيت طاغيةً جديداً غارساً فيك القتاد
إنها يا أختُ أبدان تسلت بالرغامِ
و أسلمت للذل أمراس القياد

فتشيها .. لن تُخرجي من جيبها
إلا قناعاً أو نقاباً أو حجابا
إنها يا أختُ جبٌ قد غدونا في حناياهُ ذئاباً
فاردميه و الحِقينا بثمودِ أو بِعاد
لا تحلمي بالغوث حين يكون مشروطاً بغمض العين عن شر يُراد
و اتبعيني نحو مملكة الجماد
اتبعيني نحو مملكة الجماد

(و تنفلت من فتحة الكهف إلى الخارج تدب بغصنها ، في نفس اللحظة يكون أبو العينين قد هب من نومه متحسساً الراقدين بجواره صارخاً في ذعر)

أبو العينين : جثث أخرى ؟!
لمَ حين أنام أرى جثثاً
فإذا قمت رأيت جواري نفس الكابوس ؟!
(و يهز من بجواره عنيفاً و هو يردد)
انهض يا سرداح و قل لي ماذا أبصرت خلال النوم ؟

سرداح : لم أبصر في نومي المتقطع إلاك

تأكل لحمي و أنا آكل منك و أتقيأ

البكري : (**وهو ينهض متألماً**) أشعر بخناجر تضرب في أمعائي

أبو العينين : لا توجد أسلحة ، أنسيت ؟

ذلك شرط النساك لمن يدخل هذا الكهف

نحن هنا ــ بالأفواه فحسبُ ــ نمارس أعمال السلطة

البكري : أفلا يسكت أبداً هذا الناعق مثل غراب البين ؟

أبو العينين : (**مستمراً**) و أنا أعجبت بهذا الإجراء من الناحية الشكلية

أي و اللهِ

ذلك أنكما دون سلاح لا يجرؤ أحدكما أن

يخلع عني جلبابي بالقوة

أما عن موضوع التصويت

فأنا ما زلت أكرر و أكرر

أن التضحية بفرد من أجل المجموع قرار صائب

فلماذا لست توافقني يا سرداح ؟

وافقني نخلِصْ و نخلّص أمتنا المنكوبة

حتى لا يهلك من جوع إنسان بعد

حتى لا يضطر الشخص إلى أكل أخيه

(يدخل زكريا حاملاً خبزاً و طبقاً به زيتون)

زكريا : جئت إليكم برغيفين و بضعة زيتونات

و سآتيكم فوراً بالماء

أبو العينين : قبل الماء أجبني يا زكريا

أصنعتم هذا الزيتون من اللحم البشري ؟

زكريا : **(للبكري)** هل هذا الأعمى معتوه أم ماذا ؟!

(و ملتفتاً حواليه) لكن أين شريفة ؟!

شريفة : **(عائدة مغبرة ثائرة)** بل أين ذهبتم أنتم بالطفل ؟!

زكريا : هو عند الشيخة زوجة مولانا جبران

شريفة : **(بفحيح)** هاتِه

زكريا : إني لا أملك أن ....

شريفة : **(و هي تهوي بغصنها عل رأسه صارخة)** هاته

زكريا : انتظري يا سيدتي لحظات فلدينا ما ينهي حيرتكم

ذلك أن رئيس جماعتنا شرح حكايتكم للزائر...

أبو العينين : **(مقاطعاً بلهفة)** من ؟! من هذا الزائر ؟

زكريا : رجل يدعى محمود الطبلاوي

شريفة : **(هاتفة بيأس)** البوق الأهبل ؟!

زكريا : ها هو ذا قد جاء

(و محمود الطبلاوي يدخل هاتفاً بتشفٍ في وجه شريفة)

محمود : البوق الأهبل دون سواه

و الآن أجيبيني يا ناقدةَ الأوضاعِ و ناقدةَ الناس

كيف الحالُ و كنتِ تريدين حماية طفل الجارية المجنونة ؟

فلعلك تعترفين الآن بأنك أول من آذاه

شريفة : اصمت يا ...

محمود : **(مقاطعاً)** بالنسبة لي فأنا أعترف بأني

لا أكثر من بوق

فهلا تعترفين بأنك مزلاج في شباك مكسور ؟!

(**و يقلدها**) لكن حتى الأشياء تمارس أحيانا فعل الخير

(**و بصوته**) هيا و أرينا مصداقاً لكلامك

هيا و أرينا كيف تؤدين الخير لهذا الطفل اللائذ بك

أبو العينين : هل أفهم من تأنيبك للمرأة هذى

أنك تعطي صوتك للذبح ؟

محمود : دون مراء

فمصير الأمة مرتبط بقدوم المهديّ

و المهديّ المنتَظَرُ يجيء إذا بلغ الشرُّ مداه

فأنا حين أساهم في إكمال الشر

أساهم أيضاً في الإعلان بمرحلة الإنقاذ

(**و لشريفة**) ما دمت أنا شيئاً

فلأفعل شيئاً ينفع حسب كلامك

شريفة : (**منفجرة**) يا لك من منحوس في أصلك و ختامك

ماتت أمك يوم أتيت إلى الدنيا

و الآن تسلم للسيف رضيعاً لم يأت جريرة

أبو العينين : (**بحسم**) تلك مناقشة لا تجدي الآن

فمن الواضح أن اثنين .. أنا و كذلك محمود

نقف ازاءك يا سيدتي

(في هذه اللحظة يدخل حسنين هاتفاً)

حسنين : بل نحن اثنان إزاء اثنين

شريفة : (**بفرحة هائلة**) حسنين ابن رتيبة

من أرسلك إلينا أسعدك الله ؟

حسنين : أرسلني عم الحمزاوي

و أوصاني أن أقف جوارك فيما تبغين

شريفة : بورك فيك . و لكن ما أدراه ؟!

حسنين : هو شيخ شيوخ الحارات البارع

لا تخفى واردة عنه و لا شاردة في أي مكان

(و زكريا يعود حاملاً جرة ماء)

زكريا : اقترب الظهر و لابد لكم من حسم الموقف

شريفة : (**صائحة بجذل**) الآن تعادلنا

زكريا : ما قيمة هذا و الطفل هناك بحالة غيبوبة

فإذا مات و لمّا يُجعلْ قرباناً

ظل إمام الأمة مستوراً حيث يكون

شريفة : (**هادرة**) فليبق إذن مستوراً لكنْ

لا تذبح طفلاً .. هل تسمعني ؟!

زكريا : (**باستياء**) و تظل الأمة في محنتها ؟!

شريفة : (**هادرة أعلى**) فلتبق الأمة في محنتها

لكن .. لا تذبح طفلاً كي تنجو أنت

و اسمع يا هذا المتكلم باسم الأمة

إن كنت تريد التضحية بإنسان للهدف الأسمى

كن إنساناً و اجعل من ذاتك مثلاً أعلى

و اذبح نفسك

زكريا : (**بهدوء**) لست أنا طرفاً في هذا يا سيدتي

دوري منحصر في تقديم النصح ،

و إحضار طعام أو ماء

شريفة : فاحلب شاة من أجل الطفل الجائع

(يدخل برقوق و الهلب فلا يلاحظهما أحد في البداية)

زكريا : كان لدينا واحدة فذبحناها لضيوف الأمس

البكري : (**واثباً**) تعني من ؟

زكريا : و هل كان لدينا بالأمس ضيوف إلاكم ؟!

البكري : (**و هو يلهث**) تقصد أنّا لم نأكل لحماً بشرياً ؟

زكريا : طبعاً لا . من تحسبنا ؟!

البكري : (**صائحاً بفرح**) يعني جوفي لم يتلوث يا سرداح

سرداح : (**مثله**) و أنا مثلك يا مولاي البكري

(و يتعانق الرجلان باكيين . و هنا يضحك الهلب و برقوق بسخرية فيلتفت إليهم الجمع ببغضاء بينما ينسحب زكريا)

برقوق : انظر يا هلب لهذين المخدوعين

و كأنهما دخلا جنة رضوان الموعودة

الهلب : (**باستهتار**) يوماً سيجيئان إلينا في سقر الحمراء

برقوق : (**مقهقهاً**) كي يبتاعا اللحم رخيصاً تقصد ؟

(البكري و سرداح يتبادلان النظرات ثم معاً يهجمان عل
برقوق و الهلب بكل قواهما)

سرداح : دعنا نخنق هذين السفاحين

البكري : **(و هو يضرب)** لن أسمح لهما بالتصويت

حسنين : **(مندفعاً وراءهما)** الهلب و برقوق هنا ؟!

أبو العينين : **(خالعاً حذاءه الممزق متقدماً و هو يسأل)**
أين دماغ الهلب ؟ دلوني أين دماغ الهلب ؟

حسنين : **(مكبلاً السفاح)** ها هي ذي تحت ذراعك

أبو العينين : **(نازلاً بضربات سريعة على الرأس و هو يزمجر)**
بالبرطوشة حتى تعمى . أي و الله

شريفة : **(تستحث الطبلاوي)** ساعد يا محمود و كن إنساناً

محمود : يعني لست أنا في رأيك بوقاً ؟

شريفة : **(هاتفة بقوة)** بل إنساناً محموداً لو تضرب
(فيندفع محمود يضرب برقوقاً بعنف حتى يغمى عليه و كذلك
يغمى على الهلب فيتنفس الجميع الصعداء)

حسنين : فقَد الوغدان الوعي

أبو العينين : هيا .. خذ جلبابي يا سرداح
و اجعل منه حبالاً للأيدي و الأقدام
(و خالعاً الجلباب بحبور)
عاد الآن المرح إلى قلبي . أي و الله
(و هاتفاً كأنه يقود مظاهرة)

لا ذبح لطفل بعد اليوم

(و سرداح يؤدي مهمة التقييد ، أثناء ذلك يعود زكريا فيبادره صائحاً بابتهاج)

البكري : الآن نصوت يا زكريا

نحن هنا ستة أصوات لحياة الطفل

(و مشيراً إلى برقوق و الهلب بازدراء)

و لدينا صفران بلا صوت يُسمع

زكريا : (**بجمود**) هذا يعني أن نبوءتنا خابت

شريفة : طبعاً خابت

ليس لأحد أن يتنبأ بعد رسول الله

قلت أنا هذا للشيعة أهلي من قبل

لا يعلم أحد من أنباء الغيب سوى الله

زكريا : (**هادئاً**) و إمام الأمة أيضاً يا سيدتي

شريفة : (**بسخرية**) و أضف أيضاً نائبه جبران

و مساعد نائب جبران !

فأين نبوءتكم إن كانت وحياً من عند الله ؟!

زكريا : هذا فيما نعتقد " بَدَاءٌ " قد يتلوه بَدَاءٌ آخر

البكري : لا أفهم هذى الكلمة

شريفة : (**باستهزاء**) سيقول ، و حاول أن تعقل هذا القول

بداءٌ يعني أن الله أراد كذا

ثم بدا للهِ ... فغيَّر ما قدره في اللوح المحفوظ

البكري : (لزكريا غاضباً) من أين أتيت بهذا الفهم المعوجّ ؟!

زكريا : هذا فهم يستند إلى كلمات القرآن

" يمحو الله ما يشاءُ و يثبت

و عنده أم الكتاب "

شريفة : أنت تؤول كلمات الدين لأغراض الدنيا

زكريا : ليس لدينا في هذى الدنيا أغراض

شريفة : تكذب يا زكريا

لا يوجد مخلوق إلا و لديه بدنيانا أغراض

و لعل جماعتكم ـ رغم ضآلتها ـ أذكى مَنْ

طمحَ إلى السلطة

حيث أشعتم أن المهديّ سيأتي بالغوث

لكنْ لابد له من قربان

فإذا كان القربان سليلاً للحاكم

سقطت هيبته و تبدى عجزه

عندئذ تأتون بمن أعددتم لتقولوا للناس

ذاك المهديُّ المنتظر فأعطوه البيعة

زكريا : يا لخيالك يا سيدتي !

لو نحن أردنا هذا لذبحنا الطفل بأنفسنا

شريفة : حينئذ تنكشفون كأطراف في اللعبة

زكريا : سامحك الله على ظنك

شريفة : و لأنا أفسدنا خطتكم

حيث تَوَحّد هذا الجمعُ البار وراء الطفل القبطيِّ المسلم
جئت تقول " بَدَاءٌ " من عند الله
كي تحتفظوا بجماعتكم سالمةً لظروف أفضل
يا للبغض المتفجر في عينيك تجاهي
فلتبغضني كيف تشاء و لكن مهديك هذا لن يأتي
و كذلك لن يذبح طفلي

زكريا : طفلك لن ينجو يا سيدتي
فهو الآن يموت من الجوع

شريفة : (**صارخة فجأة بفرحة عارمة**) أتحداك

البكري : (**مذهولاً**) ماذا بك يا أخت ؟!
و لماذا ترتعدين و وجهك فياض بالفرحة ؟!

شريفة : (**و هي تنتفض**) لأني ...
لأني أشعر في ثدييَّ بوخزٍ و استنفار

أبو العينين : (**مصفقاً**) هذا لبن يتدفق في صدرك
معجزة لا شك
(**و منطلقاً يرقص و يصفق**) أى و اللهِ .. أي و اللهِ

شريفة : (**و هي تلهث قائلة لزكريا**) آتيني بالطفل سريعاً
لا .. بل خذني معك إليه و إلا ..
مزقتك بأظافريَ العشر

(و تجذبه بعنف ماضية به للخارج .أما الرجال الخمسة فيتصافحون و يتعانقون حتى تفاجئهم قهقهة من الهلب الذي كان قد أفاق)

سرداح : مما تضحك يا شيطان ؟

الهلب : أضحك منكم

البكري : و لماذا تضحك منا يا كلب ؟

الهلب : **(متلوياً بالضحك)** لا .. لا

لن أكشف سر الشاة المزعومة

سرداح : **(مترنحاً)** مزعومة ؟! ماذا تعني ؟!

الهلب : لا تسألني .. فأمامك مختص التوريدات

برقوق : **(و قد أفاق)** يسألني عن ماذا ؟

الهلب : عما أكلوه صباح اليوم فبدلهم تبديلاً

صيرهم مثل الكل ذئاباً دون مشاعر

ثم انخدعوا بكلام الناسك زكريا عن شاة مزعومة

فارتدوا ثانية للوهم بأنهمو ما زالوا بشراً أبراراً

برقوق : **(معاتباً)** قلنا نسكت هذى المرة عنهم يا هلب

الهلب : **(صائحاً)** ضربونا يا برقوق و أيضاً وضعونا في القيد بلا رحمة

برقوق : عندك حق ، فلماذا نحمل عنهم هذا الغم القاتل ؟

سرداح : **(لاهثاً)** يعني نحن أكلنا فعلاً ...

أبو العينين : **(مقاطعاً بصرخة)** لا .. لا تكمل يا سرداح

و حاول ألا تتأثر بكلام ليس عليه دليل قاطع

سرداح : أشعر في أذنيّ بوقر و طنين

أبو العينين : ذلك خير من أن تسمع سماً يتسلل

البكري : (**متحسساً الهواء كالأعمى بينما صوت الرياح يصفر عالياً**)

أترانا نتقهقر يا سرداح إلى خلف الخلف ؟!

أبو العينين : (**و قد صار قائداً فعلياً**) لا .. بل نحن على ما نحن ،

و لن ننتكس البتة

فالعبرة بالنية يا بكريّ و يا سرداح

البكري : (**ملتاعاً**) لكن كلامك يعني

أنك مما زلت تشك

أبو العينين : (بحزم) ذلك فخ الهلب و برقوق

لكن ــ بإرادتنا ــ يمكن ألا نسقط فيه

(**و متأججاً حماسة**) و لنتذكر شرع الله بحالتنا هذى

فمن اضطر فليس عليه جناح

[تشتد الريح ، و تسمع من بعيد أصوات هتافات غاضبة ،

فيتدافع الرجال الخمسة إلى باب الكهف]

البكري : ما هذى الأصوات الفظة ؟!

الهلب : (**ساخراً**) هم أهل الحارات الجوعى يأتون ليشتركوا

في التصويت

برقوق : (**مكملاً**) فلقد أرسلنا نحن إليهم كي يأتوا

الهلب : (**بفخر**) أو لسنا نحن الضباط السريين نقود الغوغاء ؟!

حسنين : لن نسمح لهمو أن ينضموا للمجلس هذا

محمود : و من يمنعهم ؟!

أبو العينين : لكنّا قررنا و المدعو زكريا ذهب بما قررنا للشيخ

البكري : زكريا الآن يقود زميلتنا للطفل الجائع

و أنا أخشى أن يتأخر في إبلاغ قرار المجلس ...

سرداح : (مكملاً) عندئذ ينضم إلينا الغوغاءُ قبيل الآذان

البكري : فلتذهب فوراً يا سرداح إليهم

و كذلك يذهب حسنين و محمود

أبو العينين : و أنا أيضاً . أي و الله

البكري : و عليكم ما أمكنكم تعطيل مسيرتهم

و أنا ــ في نفس الوقت ــ سأعدو

أحمل للشيخ قرار المجلس

بو العينين : هيا يا صحبة

[فيندفعون جميعاً للخارج تاركين وراءهم الهلب و برقوق صامتين . و الرياح تقصف زمجراتها العنيفة]

إظلام

المشهد الأخير

الخلاء حيث الرياح تحمل التراب و تلقيه بعنف ، و صفيرها يتعالى أحياناً ، و أحيانا أخرى يتحول إلى زمجرة مكتومة .
يرى الحاجب ابن عمارة و معه ثلة من الحرس مسلحين بسيوف و حراب يحتمون بصخرة بعيدة في الجهة اليمنى
في المنتصف ثمة درب ترابيّ يفضي إلى أعلى الجبل ، تحدده صخرتان ضخمتان من جانبيه
إلى اليسار كهف يقف أمامه البكري . و على مستوى أعلى يوجد ما يشبه الكوخ مصنوع من الأحجار و جريد النخل .

ابن عمارة : (**للحرس**) صدق إذن ذاك الرجل الحمزاوي
ها هم أولاء هنا
فلنتوار الآن وراء الجرف الأيمن
لا يخرج أحد منكم حتى يتلقى مني الأمر

البكري : (**منادياً في الجهة اليسرى**) اخرج لي يا شيخ
يا جبران اخرج أرجوك

جبران : (**خارجاً و هو يسبح على أصابعه**) ماذا يا بكري

البكري : (**بلهفة**) جئتك بقرار المجلس

جبران : فات الوقت فليس لما قررتم جدوى

البكري : (محتجاً) ناديت عليك طويلاً قبل الآذان

جبران : كنت أصلي ركعات التمهيد لفرض الظهر

البكري : فلماذا لم تخرج لي وقت الآذان ؟

جبران : كان عليّ أداء الفرض
الأولى أولى .. تلك أصول و ثوابت

البكري : (منفجراً) قل لي يا شيخ
دعني أسأل دون مساس بالدين
هل تحسب أن الله تعالى مثل أكاسرة الفرس
أو مثل قياصرة الروم المحتاجين ولاء رعاياهم ؟!

جبران : (بهدوء) طبعاً لا
بل نحن المحتاجون إلى صلوات تعصمنا من
إغراء النفس الأمارة

البكري : أنت تراوغني بكلام نحن حفظناه صغاراً
لكنك تستخدمه في غير محل
و كأنك حين تردده بلسانك
تضمن قصراً لك في الجنة
مع أنك و النساك جميعاً حراس جحيم نحياه

جبران : (نافخاً) و هو جحيم أنتم من أشعله بإرادتكم

البكري : ليكن هذا .. لكني و رفاقي
حاولنا أن نطفأه

فلماذا أنت أبيت علينا ذلك ؟

جبران : أخبرتك من قبل بأنّا لا نتداخل في
مشكلة لم نصنعها
قلنا انتم تتخذون قراراً و علينا نحن التنفيذ
و ضربنا ميقاتاً لكمو فترددتم
حتى ضاع الوقت سدى

البكري : (**صائحاً**) كان بإمكانك أن تخرج نصف دقيقة
تسمعني ثم تعود إلى صلواتك

جبران : (**بعد صمت**) اسمع يا بكري
سنتيح لكم متسعاً من وقت ثان
فلنجعل موعدنا معكم بعد صلاة العصر

البكري : أنت تناور حتى ينضم إلينا الغوغاء

جبران : هم أصحاب البلد الأصليون
و لهم مثلك حق التصويت .. أليس كذلك ؟

البكري : و بهذا أنت تريد قرار المجلس أن ينقلب إلى الضد

جبران : (**بتهكم**) فأين فصاحتك و أين بلاغتك العربية ؟

البكري : من ذا يقدر أن يقنع محض وحوشٍ ،
أكلوا لحم البشر و هم يدرون ؟!

جبران : (**منفجراً مع الرياح العاوية**) هم محض وحوش بالفعل
لكن .. من شكّلهم في تلك الهيئة ؟
(**و مشيراً إليه بإصبعه**) أنتم

أنتم يا من جئتم بجيوش الغزو إليهم
يا من حزتم خيرات البلد لأنفسكم
و تركتم لهمو صحراوات الجوع
فانطلقوا فيها قطعانَ ذئاب تعوي
و ضباعٍ تسعى خلف الميتة و الدم

البكري : الآن عرفتك يا شيخ
أنت إذن من أصحاب العظم الأزرق
من دخلوا فينا لا عن إيمان برسالتنا
بل من باب التَّقْيَة

جبران : (**صارخاً بألم**) و كأن العظم الأزرق سُبَّة
بل هو عار ولايتكم
و دليل الظلم الصادر منكم ضد الودعاء
قل لي .. ماذا فعل المأمون المتعلم
من أنشأ دار الحكمة في بغداد
من ترجم للعربية أعمال أرسطو طاليس
ماذا فعل المأمون هنا في مصر بفلاحينا الثوار الجوعى ؟!
جاء إليهم بجنود لا تنفد
و مضى يحصدهم بالآلاف بلا رحمة

البكري : (**بعد صمت**) لو أنَّا متنا الآن بغمضة عين
ثم بعثنا يوم الدينونة
فرأينا أنفسنا نقف كما نحن الآن

و كأخوين أمام الله سألتك من أنت
فبماذا كنت تجيب ؟

جبران : (**بصوت رهيب**) سيكون جوابي الصمت التام
ما كنت لأتكلم حتى لو كان الرب هو السائل

البكري : (**صائحاً**) هذا قولُ يهوديٍّ يضرب في ظلمات التيه

جبران : (**بانتصار**) أرأيت ؟! أرأيت لماذا أصمت عنك ؟
لأنك يا هذا مثلي تضع قناعاً يُخفي وجهك
ذاك قناع الشرطيِّ المتأهب دوماً للتحقيق مع الناس
نحن جميعاً أقنعةٌ تحجب أقنعةً ،
في دَوَرٍ لا يتوقف
فلماذا تطلب مني وحدي أن أبدو بالوجه الأصليِّ ؟!

البكري : (**مهتاجاً**) أقسم بجلال العرش و أسماء الله الحسنى
أن أعتزل المنصب من هذى اللحظة
مقابل أن تخلع أنت قناعاً من أقنعتك
و تحدد ماذا تمقت في أمتنا العربية

جبران : (**منفجراً**) أمقت فيكم يا أجلاف الصحراء
هذا الإستعلاء على أهل الذمة
هذا التعبير التفريقيَّ المتشامخ
هل يدخل أحد في ذمة أحدٍ ،
إلا إن كان الداخلُ هذا بعضَ متاعٍ أو
في حكم الشيء ؟!

و لهذا نحلم بالمهديّ العادل أن يأتي
ليحطم هذا الحاجز بين العربيّ و غير العربيّ
بين المسلم و الذميّ
بين الذكر و أنثاه
كي يمحو أيضاً من ألفاظ اللغة الزائفة المصنوعة
لفظين اثنين : السيِّدَ و العبد

(تظهر جموع هادرة ، بينهم سرداح و أبو العينين و محمود و حسنين . يتجادلون و يتدافعون ، و كذلك زكريا الذي يمشي صامتاً حتى يقف بجانب جبران)

حسنين : نحن سنشرح لكمو فانتظروا

رجل : **(هو الزعيم فيما يبدو)** يكفينا ما شرح الناسك زكريا

محمود : نحن لدينا آراء أخرى

الزعيم : قلنا لن نسمع أكثر

آخر : لن يثنينا شيء عن مطلبنا

سرداح : لكنْ مطلبكم شيء لا إنسانيّ يا حضرات

الزعيم : **(بحماس)** بل هو تمهيد لظهور المهديّ
و المهديُّ سيرفع عنا كل الآلام

ثالث : و كل خطايانا أيضاً

الزعيم : عن نفسي .. أعلنها برضائي
لو كان غلامي الأوحد ثمناً لخلاص الأمة
لرضيت له أن يُذبح دون تردد

الجموع : (**هادرة**) ذاك هو القول الفصل

أبو العينين : (**محاولاً تهدئتهم**) فلنعقد مؤتمراً يا أخوة

و لنتناقش بهدوء و روية

ثم نصوت في هذا الجانب أو في ذاك

البكري : (**متقدماً**) كنتَ و سوف تظل حماراً يا بن أبي العينين

لا يُطلَّبُ إلا من إنسان حر أن يختار

أما المشحون بآراءٍ مسبقة مصنوعة

فلسوف يسايرك إلى أجلٍ ثم يدس السكين بظهرك

الزعيم : (**صارخاً**) أين الطفل ؟! نريد الطفل

(تخرج شريفة من الكوخ العلوي حاملة الرضيع على صدرها تواجههم بانشراح)

شريفة : ها هو ذا

لكن نبوءتكم خابت

فلقد أُذِّن لصلاة الظهر و لمَّا يُذْبَح

يعني لا قيمة بعدُ لهذا القربان المنشود

أو ليس كذلك يا جبران ؟

(جبران لا يرد . و ثمة صمت ثقيل يهبط على المكان فلا يسمع إلا صفير الرياح و سفوف الرمال)

الزعيم : زكريا حدثنا عن آذان العصر

شريفة : لا .. لا زكريا أخطأ في التعبير فحسب

أو ليس كذلك يا جبران ؟

(و جبران يتمسك بالصمت ، فتلتفت شريفة إلي زكريا بفجيعة)

شريفة : هل قلت لهم شيئاً من هذا يا زكريا ؟!

زكريا : (بحرج) جاء إلى مولانا الوحي بتغيير الموعد

حسنين : (بدهشة) وحي يتغير كيف ؟!

البكري : نساك زهاد أنتم أم كذابون و محتالون ؟!

شريفة : الآن أدركت الحقيقة

نحن اخترعنا كل فكر في الوجود

هل هذه نار أمامك ؟ فلتخضها يا غلام.

فالنار عاجزة إزاء المؤمنين

و يخوضها المسكين لكن يحترق

فيقال إن المؤمن الحق مصاب

الزعيم : لن تعبثي برؤوسنا ، هاتي الرضيع

الشريفة : يا سادة اللعب المباح

هذا غلامي فخذوه و اذبحوه

و لتنثروا دمه البريء مع الرياح

و لتذبحوني مثلهُ

كي لا أراكم تعبرون الدرب صبحاً أو مساءً

و أنا هناك بذلك الشباك أرنو عاجزة

مثل مزلاج صدئ

الزعيم : (هاتفاً) تلك امرأة زنديقة

رجل : (بتردد) زنديقةً كيف ؟!

الزعيم : ما دامت تزعم أنّا نخترع الأفكار العليا

طبعاً تفهم ماذا تقصد بالأفكار العليا

الرجل : (**مشدوهاً**) تعني ... ؟! استغفرك اللهم

الزعيم : هي تدعونا للإلحاد بأقوال براقة

فإذا كانت تطلب أن نذبحها مثل الطفل القبطيّ..

فسنفعل ذلك مسرورين

(و إذ يتحركون نحوها يسرع البكري واقفاً أمامهم)

البكري [illegible] يلمسها أحد منكم

الزعيم : بل نحن سنذبحها و ابعد أنت و إلا ...

البكري : و إلا ماذا يا آكل لحم أخيك ؟!

الزعيم : (**مستلاً سكيناً**) و إلا ودع أيامك يا رجل الشرطة

البكري : (**و هو يلقي به أرضاً**) اهربي يا شريفة

(لكن الرجل يتمكن من طعنه ، و يستعد للتقدم فيمسك البكري بقدميه و هو يصيح)

البكري : اهربي يا شريفة

(و شريفة تقف مترددة فيستحثها حسنين و سرداح و محمود هاتفين)

الثلاثة : اهربي يا شريفة

(و إذ يتقدم الغوغاء يدوسون على جسد البكري يصيح هو برفاقه بحشرجة المحتضر)

البكري : أغلقوا هذا الممر

و اهربي يا شريفة

(فيسرع الرجال الثلاثة للوقوف بأجسادهم بين الصخرتين متحملين ضربات سكاكين الغوغاء الوحشية بينما تنطلق شريفة فجأة تعدو بالطفل حتى تختفي خلال العاصفة الترابية ، و أما أبو العينين فيزحف إلى البكري مسترشداً بصوت حشرجته)

أبو العينين : أجُرِحْت ؟

البكري : (بمحاولة أن يكون مرحاً) في القلب تماماً . أي و الله

أبو العينين : (**مجهشاً بالبكاء**) أتمازحني و دماؤك تنزف ؟!

البكري : (**بحشرجة**) لا تبكِ عليَّ و قل لي

هل نجحت شيختنا في الإفلات ؟

هل أبصرت بها تنجو من قبضتهم ؟

أبو العينين : (**ملتاعاً**) دوماً تنسى أني أعمى

البكري : أو لا تبصرها بالقلب ؟

أبو العينين : إن كان على هذا فأنا أبصرها

تمضي في أرض الله الواسعة الحرة

و كذلك أبصر معها الطفل

يكبر بين يديها

و أكاد أراها تروي قصتنا للطفل و قد بلغ الرشد

البكري : (**بحشرجة الموت**) مطلوب طبعاً أن تروي قصتنا

ليعيش الناس بغير ضغائن

(و يموت بين ذراعي أبي العينين الذي يحتضنه باكياً . في هذه اللحظة يخرج ابن عمارة و حراسه من خلف الصخرة البعيدة هاتفاً بتهجم)

ابن عمارة : مال الدولةِ أين ؟

جبران : **(بضعف)** هو عندي يا مولاي

ابن عمارة : فائتِ إليَّ به فوراً

(فيسرع النساك إلى الكهف يعودون بصرر المال يلقون بها أمامه واحدة بعد الأخرى ، أثناء ذلك كان الغوغاء قد تراجعوا عن الممر تاركين فيه سرداح و محمود و حسنين ممددين على الأرض بغير حراك . و أما أبو العينين فيزحف ناحيتهم على يديه و قدميه منادياً إياهم بينما الغوغاء يتسللون هاربين)

أبو العينين : سرداح رفيقي .. أين ذهبت ؟!

صوتك في هذا الموضع كان يئن

لم لا تتكلم يا محمود ؟!

و أنت كذلك يا حسنين ؟!

(و عند بلوغه موضعهم يبدأ في تحسس وجوههم بعدها يصرخ صرخة اليأس الكامل)

جثث حولي في اليقظة ؟!

و دماء تجري ساخنةً بين يدي ؟!

صرتم جثثاً يا أحبابي ؟!

صرتم جثثاً بالفعل ؟!

كيف يطاوعني قلبي أن أحكي عنكم لرفاقي العميان ؟!
كيف و قد مات المرح بقلبي لحظة أن متم ؟!

ابن عمارة : **(لجبران بريبة)** هل هذا كل المال ؟

جبران : طبعاً يا مولاي

ابن عمارة : لكن عميلاً لي أبلغني أن ...

جبران : **(مقاطعاً بخوف)** آ ... يوجد دينار في سروال الأعمى
سامحني إن كنت نسيت

ابن عمارة : **(بغلظه)** هاته

جبران : **(مخرجاً الدينار من جيب الأعمى و معه القرط)**
يوجد قرط ذهبي أيضاً يا مولاي

ابن عمارة : **(بنفس الغلظة)** هاته

أبو العينين : **(من بين نشيجه)** هذا ليس من الفدية

ابن عمارة : اخرس يا أعمى

أبو العينين : **(منفجراً بالبكاء)** هذا حظك يا بن أبي العينين
جعلتك الدنيا أعمى
و كذلك أخذت منك جميع الأحباب
حتى تذكار شريفة .. صادره الحاكم

(و ابن عمارة يقترب من جبران هامساً له بسخرية)

ابن عمارة : هزمتك امرأة شبه قعيدة

جبران : ذاك بداءٌ ...

ابن عمارة : **(مقاطعاً)** بل أنت المسئول الأوحد عن هذا

فلقد أسرفت كثيراً في التدبير المتعنت
فاشتبكت منك خيوط الحبكة

جبران : هل كنت أدبر شراً كي تشمت فيَّ ؟!

ابن عمارة : لو كنت نجحتَ . لحصلتَ على تأييدي
فأنا مثلك أحلم باستقلال البلد عن الخلفاء جميعاً
لكني أتحرك في حذر خشيةَ أن ...
(**و مقلّباً كفيه**) يذبحنا " مأمون " آخر
تعرف طبعاً ماذا أقصد

جبران : (**بيأس**) ضاعت آمالي في التغيير
فماذا تطلب مني بعد ؟!

ابن عمارة : إني لا أطلب
بل آمرك بأن تمضي في اللعبة لنهايتها

جبران : كيف و تلك نبوءتنا قد خابت ؟!

ابن عمارة : بل صدقتْ يا أحمق

جبران : (**بدهشة**) صدقتْ كيف ؟!

ابن عمارة : (**مقترباً منه أكثر**) تلك المرأة ...

جبران : ماذا ؟

ابن عمارة : ذبحتْ طفلَ المستنصرِ في لحظة يأس مجنونة

جبران : (**بدهشة أكبر**) كيف و كل الموجودين رأوها تهرب بالطفل ؟!

ابن عمارة : (**مؤكداً**) لكنْ .. ذبحته فيما بعد
و ستشهد أنت على هذا في مؤتمر شعبي باكر

و ... لسوف يؤيد قولَكَ أعواني ، و الهلبُ و برقوق
و ستعلن أن المهديَّ تجلى
في هيئة إنسان قدَّم للأمة قطعة لحم منه

جبران : (**بفجيعة**) أتريد أن لنا أن نعلن ..
أن المهديّ المنتظرَ هو الــ ...

ابن عمارة : (**مكملاً بحزم**) ... مستنصر بالله خليفتُنا الصالح

جبران : (**يكاد يبكي**) ذلك فوق حدود الطاقة

ابن عمارة : (**و يده على مقبض سيفه**) أتعارض رغبات ولي الأمر ؟!

جبران : لا .. لست أعارض
تلوا باطلاً و جلوا صارماً

و قالوا صدقنا ؟! فقلنا نعم

ابن عمارة : (**بارتياح**) يعجبني في أعمى النعمان الفهمَ العمليّ

جبران : شأن المهزومين جميعاً في كل زمان و مكان

ابن عمارة : و أنا كوزير مهزوم
أدعوك و أعوانك لعشاء في القصر غداً
(**و مائلاً نحوه**) من زادت وطأتُه وجبتْ ... ماذا ؟!

جبران : (**بيأس تام**) طاعتُه يا مولاي

ابن عمارة : (**مستعداً للانصراف**) و العاصون يموتون تباعاً
حتى الأعمى يفهم هذا كل الفهم
أو ليس كذلك يا بن أبي العينين ؟!

(و إذ ينصرف و الحراس وراءه يحملون صرر المال ينهض أبو العينين يحدق في الأفق حيث تُرى يمامة ترفرف بجناحيها فوق القمة و بجانبها عصفور ملتصق بها ، فيصيح أبو العينين بفرح جنوني)

أبو العينين : أنظر يا زكريا

تلك شريفة

إني أعرفها من هيئتها المنقوشةِ في قلبي

أتراها و الطفل يطير بجانبها يا جبران ؟!

أتراها مثلي ؟!

جبران : **(بدهشة)** إني لا أبصر إلا عصفوراً ملتصقاً بجناح يمامة

أبو العينين : **(و هو يعدو متخطياً الجثث منطلقاً إلى أعلى)**

أنت إذن أعمى يا أخ

تلك الأيام نداولها بين الناس

لا تُبقي المبصرَ مبصر

و الأعمى أعمى

أي و اللهِ

ستار الختام